تيسير خلف



الرواية السريانية للفتوحات الإسلامية



الرواية السريانية
للفتوحات الإسلامية


مكتبة
الفكر الجديد

تيسير خلف

الرواية السريانية للفتوحات الإسلامية





الطبعة الأولى 2016

هاتف: 00963 112236468

فاكس:00963112257677

ص. ب: 11418، دمشق ـ بيروت

taakwen@yahoo.com



توضيح

- من بين القوسين [..] إضافات وشروحات من المؤلف على النص الأصلي.

- ت خ: تاريخ ميخائيل الكبير.

- ت م: تاريخ التلمحري.

- ت ي: تاريخ يوحنا الآسيوي.

- ت ز: تاريخ الزوقنيني.

- ترد الكثير من الوقائع مؤرخة بالتاريخ اليوناني وهو الذي يعتمده السريان في التقويم. ويسمى تقويم الاسكندر وتقويم السرياني أو التقويم اليوناني أو تاريخ ذي القرنين؛ ويبدأ هذا التقويم يوم الاثنين الأول من تشرين الأول (اكتوبر) سنة 312 ق.م، فهو متقدم على التاريخ الميلادي 311 سنة وثلاثة أشهر. والسنة في هذا التقويم 12 شهراً مجموع أيامها 365 يوماً للسنة البسيطة و366 يوماً للسنة الكبيسة.




مكتبة
الفكر الجديد

تقديم

شكلت الفتوحات الإسلامية المبكرة لبلاد الشام والعراق والجزيرة الفراتية ومصر الحدث العالمي الأبرز خلال القرن السابع الميلادي والأول الهجري، ففي خلال فترة زمنية بسيطة قضت جيوش الفتح الإسلامي على الإمبراطورية الفارسية الساسانية قضاءً مبرماً، وقوضت الإمبراطورية البيزنطية إلى حد كبير، وحصرتها في منطقة ضيقة غربي الأناضول وفي القسطنطينية. وفي السنوات التالية لذلك تحول البحر الأبيض المتوسط وجزره الشهيرة؛ كقبرص وكريت ورودس وصقلية، إلى منطقة نفوذ إسلامية بامتياز، بعد أن كان بحيرة رومانية لقرون خلت.

وشغلت أخبار الفتوح المؤرخين والإخباريين العرب والمسلمين، وشكلت مادة رئيسة للعديد من المؤلفات، التي وضعت حول هذا الموضوع عنواناً لها، كـ (فتوح البلدان) للبلاذري، و(فتوح الشام) للواقدي، و(تاريخ فتوح الشام) للأزدي، و(فتوح مصر) لأبي القاسم القرشي، وغيرها من الكتب التي عنيت بهذه الأحداث العظام في تاريخ البشرية جمعاء.

غير أن هذه المؤلفات في معظمها عانت من مشكلة أساسية، وهي اعتمادها على روايات شفهية متعددة، تم تدوينها بعد أكثر من قرنين من وقوعها، وهو ما خلق بعض الاضطراب في تسلسل بعض الأحداث، ووجود أكثر من رواية في الكتاب نفسه تناقض بعضها



البعض، بالإضافة إلى تدخل الميول السياسية والمذهبية والأهواء في بعض هذه الروايات، وخصوصاً بعد أحداث الفتنة الكبرى التي هزت الدولة الإسلامية بين الخليفة الراشد الرابع الإمام علي بن أبي طالب، والخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان.

وقد تنبه إلى هذه المشكلات المنهجية العديد من الباحثين وخصوصاً المستشرقين الكلاسيكيين منهم، فحاولوا، انطلاقاً من نزعات معادية وغير علمية، الطعن بالرواية الإسلامية مستندين إلى هذه الثغرات، غير أن بعض المستشرقين الآخرين اعتمدوا منهجاً مقارناً استطاعوا من خلاله الوصول إلى قواسم مشتركة لبعض الروايات الملتبسة التواريخ والأحداث يمكن اعتمادها بالنسبة لأخبار الفتوح، وقد فتحت هذه الدراسات الباب واسعاً أمام باحثين جدد حاولوا القيام بدراسات نقدية مقارنة بين المصادر الإسلامية، أوصلت بعضهم إلى كشوف حقيقية على هذا الصعيد ومنهم الباحث ولتر كيغي (*Walter E Kaegi*) صاحب كتاب (بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة)، والباحث كلاوس كلير صاحب كتاب (خالد وعمر)، الذي أثبت من خلال المصادر الإسلامية المبكرة عدم وجود خلاف بين الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب وبين القائد الكبير خالد بن الوليد، معتمداً منهجاً تحليلياً رائداً يصلح أن يطبق على الكثير من الوقائع التاريخية الملتبسة.

وفي هذا الأفق الجديد الذي فتحته الدراسات النقدية المقارنة، تبرز المصادر السريانية التي تناولت أخبار الفتوح الإسلامية، كعنصر أساس في هذه الدراسات، لابد منه لكي تكتمل الصورة وتحاط بمختلف أبعادها وزواياها، خصوصاً وأن السريان كانوا شهوداً عياناً على هذه الأحداث، ووثقوها في كتب التاريخ التي كانوا يضعونها



ويتوارثونها كابراً عن كابر، وقد غابت المصادر التاريخية السريانية طويلاً عن قراء العربية، واحتكرها العارفون باللغة أو المستشرقون الذين بدأوا بترجمة التراث التاريخي السرياني بشكل مكثف في القرن التاسع عشر، في حين وجه بعض أعمدة الاستشراق الغربي ثيودور نولدكة نقداً لهذه المصادر، جعل الكثير من الباحثين يعرضون عنها.

غير أن الترجمات الجديدة للمصادر التاريخية السريانية إلى لغة الضاد سدت بعض النقص على هذا الصعيد، وأمدت الباحث ببعض النصوص التي تساعده على إجراء الدراسات المقارنة المتعلقة بالتاريخ العربي الإسلامي المبكر، ولكن هذه الترجمات ما تزال تعاني من الشح والانتقائية لأسباب شتى، لا مجال للحديث عنها في هذه العجالة.

لقد اعتمدنا في دراستنا هذه، التي كرسناها للفتوحات الإسلامية المبكرة في المصادر السريانية، على كل ما وقع تحت أيدينا من المصادر السريانية سواء باللغة العربية أو باللغة السريانية، مستعينين على فهمها وترجمة بعض نصوصها بأصدقاء سريان مترجمون أكفاء، منهم الصديق جوزيف أسمر ملكي، الذي لم يدخر جهداً في تقديم العون لكاتب هذه السطور، سواء في ترجمة بعض الفقرات أو إحضار بعض المصادر النادرة، ولذلك فأنا مدين له بالشكر والامتنان.

ينقسم بحثنا هذا إلى ثلاثة أقسام غير متساوية، ففي القسم الأول؛ ناقشنا موضوعة السريان والتأريخ، وخصوصية التواريخ السريانية واختلافها عن كتب التاريخ الأخرى، ودرسنا بشيء من التحليل مصادر التاريخ السرياني، وبينا درجة مصداقيتها وسقنا أدلتنا على ذلك. وفي القسم الثاني؛ بسطنا النصوص التي تناولت أخبار الفتوح والفترة التاريخية التي سبقتها مباشرة، لما لها من علاقة مباشرة



بالأحداث التي جرت بعدها، وقد حاولنا جهدنا تفسير الغموض الذي لف بعض النصوص، وتوضيح بعض الأسماء والأماكن الوارد ذكرها، والتعليق على بعض الأحداث.

أما القسم الثالث؛ فقد خصصناه لتحليل الرواية السريانية تحليلاً نقدياً أضاء بعض الجوانب المبهمة فيها، ووضع بعضها الآخر في نصابها المنطقي. وقمنا بإعادة تركيب بعض الوقائع والشخصيات وفق الرواية السريانية، فتوصلنا إلى حقائق جديدة غير موجودة في أي كتاب آخر.

وكل ذلك على أمل الوصول إلى رواية تاريخية قريبة من الواقع، تجلي الغموض واللبس عن حقبة مفصلية من حقب التاريخ العربي الإسلامي، ما زلنا نعيش تحت تأثيراتها ونتائجها حتى اليوم.

تيسير خلف

دمشق- 5 نيسان 2009م



السريان والتاريخ

تعد المصادر التاريخية السريانية ثروة حقيقة لأي باحث يدرس تاريخ الفتوح العربية الإسلامية في أواسط القرن السابع الميلادي، فهذه المصادر توفر رواية حيادية إلى حد ما بين الروايتين الإسلامية بمختلف تشعباتها، وبين الرواية البيزنطية المقتضبة التي لا تغني لا تسمن من جوع.

ومع أن الرواية السريانية لأخبار هذه الفتوح تعاني من ثغرات علمية لا بأس بها، إلا أنها بالنظر إلى الروايات الأخرى المتوفرة تعد من أكثر المصادر تماسكاً وانسجاماً، نظراً لأن السريان دونوا الأحداث في وقتها، وقد توفر لهم أكثر من مؤرخ عاصر زمن الفتوحات، فدون ما وصله عبر وسائل مختلفة، منها الأخبار التي كان الجنود السريان العاملين ضمن القوات البيزنطية يتناولونها، أو عبر التقارير والرسائل الكنسية التي كان يدونها الأساقفة ورجال الدين، أو عبر الاطلاع على الموقف العربي الإسلامي من خلال العرب المسيحيين والسريان الذين شاركوا العرب المسلمين في القتال ضد البيزنطيين.

ولذلك فإن الروايات السريانية تحظى بكم كبير من المصداقية كونها ابنة زمنها، وجرى الحفاظ عليها بالتدوين، على الرغم مما قد يقال عنها من ملاحظات محقة في جانب منها، وهي الملاحظات التي أخذها عليها أغلب الدارسين الغربيين ومنهم المستشرق ثيودور نولدكة ومن نحى نحوه.



وعليه فإن أهم الملاحظات التي يمكن أن توجه للرواية السريانية المتعلقة بالفتوح الإسلامية تلخص في أن ناقليها لم يكونوا في مركز صنع القرار، وربما كانوا هامشيين بالنسبة لموقع القرار، إن كان على الجانب العربي الإسلامي أم على الجانب البيزنطي، باستثناء شهادة القائد إيوانيس رصفيا [يوحنا الرصافي] التي استوعبها المؤرخ ديونيسيوس التلمحري. ومع ذلك فإن الوقائع التي تنقلها الرواية السريانية تسد بعض الثغرات في الروايات العربية المتشعبة والمتناقضة أحياناً، وتقدم معلومات جديدة لم تنتبه لها باقي الروايات العربية والبيزنطية، وخصوصاً لجهة الوضع الداخلي على الجبهة الفارسية والانقسامات التي حدثت فيها مشاركة قادة من الفرس إلى جانب البيزنطيين في معركة اليرموك.

غير أن الروايات السريانية على صعيد آخر تعاني من مشكلة الطبوغرافيا، وخصوصاً تلك المتعلقة بجنوب بلاد الشام، فالباحث المدقق يلحظ الخلط في هذا الجانب، مع أنه من السهل تصويبه بالاعتماد على المصادر الأخرى، وهو خلط يمكن تفهمه من رواة تبدو علاقتهم بجغرافية سورية الجنوبية ضحلة، مقارنة مع علاقتهم بجغرافية سورية الشمالية، التي هي موطن الرواة المتعددين. بالإضافة إلى التركيز على موضوعة العقاب الإلهي الذي حل بالبيزنطيين والفرس مضطهدي السريان على حد سواء.

فالكثير من الوقائع التاريخية التي تم توثيقها انطلقت من هذه القاعدة، أي الانتقام الإلهي، والتسليم بالروايات السابقة بوصفها روايات لا يرقى إليها الشك، والاستطراد في الحديث عن الخوارق والمعجزات، وهي مشكلات كانت تعاني منها جميع كتب التاريخ في الحقبة البيزنطية، سواء منها السريانية أو اليونانية أو اللاتينية.



ويمكن الحديث أيضاً عن التركيز على بعض الحكايات الهامشية المعبرة، على حساب بعض الوقائع الكبيرة التي كان بالإمكان التوسع في سرد تفاصيلها، ولكن يبدو أن الوازع الديني كان هو المحرض الأساس للكثير من الرواة السريان عند سردهم القصص والوقائع، التي عايشوها أو سمعوها من آخرين، وهذا الأمر يمكن تفهمه إذا عرفنا أن الغالبية الساحقة من كتاب التاريخ السريان هم من بطاركة الكنيسة وآبائها، فالتاريخ الذي كانوا يكتبونه هو تاريخ ديني وزمني في آن واحد، وتتداخل الأحداث بين هذين الجانبين في معظم صفحات ما يكتبون.

لقد عاش السريان على تخوم الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، وكانت بلادهم مسرح صراع بين الأكاسرة والقياصرة، وعانوا الويلات من كلا الجانبين، وتوفرت لهم فرصة الاطلاع على تفاصيل الحياة البيزنطية الفارسية على حد سواء، بما في ذلك حياة القصور.

وللحق نقول إننا لا نعثر على تفاصيل حياة البلاط الفارسي كما هو الأمر في الرواية السريانية، والتي استفاد منها كل من كتب عن تاريخ الفرس قبل الإسلام.

لقد شكلت الروايات السريانية مصدراً مهماً للكثير من المؤرخين العرب والأرمن، ولعل التأثيرات السريانية واضحة في تاريخ الطبري، وكذلك في مؤلفات المسعودي، بالإضافة إلى كتب التاريخ الأرمني المعروفة والتي أشار إليها أكثر من باحث.




مكتبة
الفكر الجديد

مصادر التأريخ السرياني

عرف السريان بولعهم في تدوين الوقائع التاريخية، وقد درج المؤرخون السريان على استيعاب ما كتبه السابقون والتذييل عليه من قبل المؤرخ الذي يتصدى للتدوين، ولذلك فإننا نجد أن المؤرخ مار ميخائيل السرياني الكبير [1166- 1199م] الذي عاصر صلاح الدين الأيوبي اعتمد في تدوين الوقائع التاريخية للفترة البيزنطية السابقة لظهور الإسلام على المصادر التالية، مستوعباً إياها في كتابه، حافظاً لها من الضياع:

1- تاريخ زكريا الفصيح، الذي وضع مصنفه من عهد ثاودوسيوس حتى عهد جستنيان.

2- تاريخ قورا البطناني، الذي كتب عن عهد جستنيان حتى عهد طيباريوس في 14 مقالة.

3- تاريخ يوحنا الآمدي المسمى الآسيوي أو الأفسسي [505- 586م]، وهو تاريخ بدأ من عهد قسطنطين حتى عهد موريقي في ثلاثة مجلدات، فقد معظمها وحفظ لنا ميخائيل الكبير الكثير من وقائعها.

4- تاريخ التلمحري، وهو كتاب وضعه ديونيسيوس التلمحري البطريرك [818- 845م] المعاصر لبدايات الخلافة العباسية، غير أنه قرر أن يضع ذيلاً على تاريخ قورا البطناني، كما يؤكد ذلك في مقدمة كتابه الذي استوعبه بالكامل ميخائيل الكبير بما فيه مقدمته، وقد اعتمد على مجموعة كبيرة من الوثائق الكنسية واستوعب كتاب التاريخ الذي وضعه



المؤرخ سرجي ابن القائد السرياني إيوانيس رصفيا [يوحنا الرصافي] المعاصر لزمن الفتوحات. والمؤرخ المذكور لم يكن بعيداً من الناحية الزمنية عن التلمحري نفسه وربما فصل بينهما جيلان أو ثلاثة.

أما كتب التاريخ السرياني الأخرى التي اعتمدناها بشكل من الأشكال فهي:

1- تاريخ الرهاوي المجهول [؟- 1234م]، وهو يضم المعلومات نفسها تقريباً التي يذكرها المؤرخ ميخائيل الكبير، ولكن مشكلة كتاب الرهاوي المجهول، الذي اطلعنا عليه باللغة السريانية بالتعاون مع الصديق المترجم جوزيف أسمر ملكي، تعاني من مشكلة تدخلِ الرواية العربية الإسلامية، والتي يبدو أن الرهاوي المجهول كان مطلاً عليها، فحاول سد بعض الثغرات في الروايات السريانية عبر كتب التاريخ العربي، وهذه هي المشكلة التي نراها في كتابات الرهاوي المجهول بالنسبة لفترة الفتوحات الإسلامية، فهو لم يحافظ على نقاء الرواية السريانية كما حافظ عليها ميخائيل الكبير إلى حد كبير، بل طعمها بروايات إسلامية.

2- تاريخ ابن العبري [1226- 1286م] المسمى تاريخ الزمان، والجزء المتعلق بالفتوحات الإسلامية غير مترجم للعربية وما زال بلغته السريانية، والأمر نفسه يمكن أن يقال عنه فيما يتعلق بتأثره بالمصادر العربية الإسلامية.

3- تاريخ الزوقنيني [؟- 774] المنحول لديونيسيوس التلمحري، فهذا الكتاب بالإضافة إلى اختصار فقراته المتعلقة بفترة الفتوح الإسلامية، فأنه يعاني من اضطراب كبير في التواريخ لا يمكن الركون إليه بأي شكل من الأشكال، وخصوصاً في الفترة التي جعلناها هدفاً لبحثنا، غير أن أهميته تزداد عند تناوله للفترتين الأموية والعباسية نظراً لأنه ينقل الأحداث بصفته شاهد عيان.



4- وعليه فإن كتاب مار ميخائيل الكبير هو المصدر الأكثر أماناً واطمئناناً بالنسبة لنا فيما يتعلق بالرواية المتعلقة بالفتوح الإسلامية، نظراً لعدم وجود أي تأثير من تأثيرات المراجع العربية الإسلامية وغيرها عليه، ولأنه أشار في معرض اقتباساته إلى المصادر التي نقل عنها، وإلى المصادر التي حفظها كما هي، وعلى الخصوص تاريخ التلمحري، الذي نجزم بأنه حفظ معظمه من الضياع.

وحتى عندما تسللت الرواية العربية الإسلامية بخصوص جبلة بن الأيهم إلى كتاب ميخائيل الكبير، فإنه وضعها في سياقها الزمني ولم يقحمها في أخبار الفتوحات. فعند حديثه عن تسلم الإمبراطور البيزنطي نقفور لوجيديط الحكم عام 803م معاصراً للخليفة هارون الرشيد، ذكر نقلاً عن تاريخ التلمحري، بان نقفور هذا هو من أحفاد جبلة بن الأيهم الذي كان يحكم اليمنيين المسيحيين [يقصد الغساسنة] وروى قصة إسلامه في عهد عمر ثم حجه وواقعة ضربه للعربي الفزاري، واحتكام الرجل لعمر، ثم فرار جبلة إلى قبادوقيا ومعاملته معاملة خاصة كسليل أسرة ملكية، حيث استقر هناك وخلف سلالة منها الإمبراطور نقفور.

وعلى الرغم من أن القصة قد تكون صحيحة لجهة انتساب نقفور المذكور هذا للعرب الغساسنة، إلا أن تفاصيل قصة جبلة مع الخليفة عمر مأخوذة بتفاصيلها عن المصادر العربية. وهي قصة تكتسب مصداقية لا بأس بها عندما نعرف أن راوي القصة معاصر لهارون الرشيد وهو البطريرك التلمحري.

وعلى العموم يمتلك كتاب تاريخ ميخائيل الكبير الكثير من المصداقية، التي يحتاجها أي باحث في التاريخ، خصوصاً أننا قارنا بين اقتباسات مار ميخائيل من تاريخ يوحنا الأفسسي وبين ما وصلنا



من النص الأصلي لهذا التاريخ، فوجدناها منقولة بنصها تقريباً، وكذلك يمكن أن يقال عن النقولات عن كتاب التلمحري والشذرات المنشورة من النص الأصلي في المكتبة الشرقية (2: 72-77).

كل ذلك يعزز لدينا مصداقية كتاب مار ميخائيل الكبير ويجعلنا نفضله على باقي الكتب التاريخية السريانية الأخرى، وخصوصاً فترة الفتوحات الإسلامية، رغم أننا حاولنا قدر المستطاع الاستفادة من الكتب الأخرى التي توفرت لنا.



تمهيد

شاءت الأقدار أن يلعب العرب الدور الأهم في مصير الإمبراطوريتين الكبيرتين الفارسية والرومانية البيزنطية، منذ قتل الإمبراطور الروماني يوليان الجاحد، الذي حكم مابين عامي [361 -363 م]، على يد حاكم من عرب الغساسنة يدعى مالك بن عبد القيس أو الملك عبد القيس (*Malechus Podosacis*)[1]، فحسب رواية المؤرخ اللاتيني أمياني مارسلليني (*Ammiani Marcellini*) فإن "يوليان *Julian* (لما بلغ الفرات ليلحق بالأسطول الذي بناه في هذا النهر ويسير به لمحاربة الساسانيين ولينقل جيشه إلى حيث يلتقي بالجيش الآخر الزاحف من دجلة والطرق البرية، قدمت له قبائل عربية (*Saracens*) الطاعة، إلا إن هؤلاء أناس لم يكونوا يُعرَفون هل هم أعداء أو أصدقاء؟ ولذلك صار الروم على حذر شديد منهم، خشية الانقلاب عليهم عند الشدائد).

وذكر هذا المؤرخ: (إن سادات القبائل قدّموا إلى القيصر تاجاً من ذهب، ليعبّروا عن خضوعهم له. ولقبوه بلقب (ملك كل العرب) فقبل الملك منهم التاج واللقب، لما في ذلك من أثر معنوي يحدثه في نفوس العرب. وحاربت القبائل، التي انضمت إليه، الفرس في معارك صغيرة. فكافأها القيصر على عملها هذا. إلا انه لم يقدم لها

(1) يرجع مؤرخو الكنيسة وفاة يوليان إلى قوى إلهية، ويعرض ميخائيل (الجزء الأول الفصل الخامس من المقال السابع ص 209) مجموعة من هذه الروايات الإعجازية ولكنه ينقل رواية تقول إن أحد أتباع يوليان العرب قتله.



معونات الذهب التي كانت تقدم عادة إلى سادات القبائل. فاستاء الرؤساء من ذلك، وانحاز قسم منهم إلى الفرس. وأخذوا يتحرشون بعسكر يوليان، و ألحقوا به خسائر في الأرواح، وباعوا من وقع في أيديهم أسيراً من الروم، في أسواق النخاسة)[1].

وقد أدت الخلافات بين الرومان البيزنطيين والعرب في الفترة التالية لمقتل يوليان، وتحت ذرائع مذهبية إلى نشوب معارك بين الجانبين حسمت لصالح الجانب العربي بزعامة الملكة الغسانية الشهيرة ماوية على قوات الإمبراطور البيزنطي فالنس في منطقة الجولان على تخوم ولايتي فينيقيا اللبنانية وفلسطين الثانية حسب التسميات الرومانية.

وكان لوقوف عرب الشام بزعامة الغساسنة إلى جانب الروم البيزنطيين في وجه الفرس أكبر الأثر في وقف التوسع الفارسي باتجاه الغرب وخصوصاً في عهد الحارث بن جبلة وابنه المنذر بن الحارث من بعده.

وكان للسياسة الخرقاء التي اتبعها الإمبراطور البيزنطي جستين [565-578م] وبعده الإمبراطور طيباريوس [578- 582]، حيال الملك الغساني المنذر بن الحارث وابنه النعمان بن المنذر، أكبر الأثر في خروج عرب الشام من معادلة الصراع بين الإمبراطوريتين، حيث تميزت الفترة التي أعقبت القضاء على مملكة العرب الغساسنة، بسيطرة الفرس العسكرية، التي عبر عنها استسلام الإمبراطور البيزنطي موريقي (*Maurice*) للقوة الفارسية، بشكل أو بآخر، وعقده صلحاً غير متكافئ مع خصوم مملكته التقليديين[2].

---

(1) AMMIANI MARCELLINI HISTORIAE LIBER XXIV.

(2) استرسل المؤرخ السرياني يوحنا الأفسسي بسرد تفاصيل هذه الوقائع وضمنها كتابه تاريخ الكنيسة، وللاستزادة والتوسع يمكن مراجعة مؤلفنا كنيسة العرب المنسية.



وقد عادت الحرب لتندلع مجدداً بعد مقتله على يد الإمبراطور فوكاس (*Phocas*)، حيث وصلت الأمور إلى مرحلة احتلال القوات الفارسية كامل بلاد الشام (613-614م) في أيام كسرى برويز [590 - 628 م] الذي هاجم الإمبراطورية البيزنطية واستولى على مصر وفلسطين، وقطع بذلك عنها شرايين التجارة العالمية المهمة وهذا ما ستتناوله في الفصل التالي من هذا الكتاب.




مكتبة
الفكر الجديد

الفرس والروم قبيل ظهور الرسالة المحمدية

توفي ملك الفرس كسرى أنوشروان عام 579م بعد حكم طويل دام ثمانية وأربعين عاماً، امتاز بالحروب الطاحنة بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية[1]، وتسلم الحكم من بعده ابنه هورامزدا فسار على سنَّة أسلافه؛ فقتل بعض أشقائه وفقأ عيون البعض الآخر[2]، وافتعل مشكلة مع الإمبراطور البيزنطي طيباريوس الذي كان قد عقد اتفاق سلام مع أنوشروان، فنشبت حرب بين الجانبين نتج عنها هزيمة منكرة للفرس، وقد عين طيباريوس القائد موريقي (موريس) قيصراً فتولى الحكم بعد وفاته سنة 581م. ومع وصول موريقي إلى السلطة بدأ عهد جديد بين الروم والفرس، فبعد وفاة هورامزدا حكم الفرس كسرى بن هورمزدا، فلم يخضع له أي من الشخصيات البارزة في المشرق، بل استهانت به هذه الشخصيات كملك فتى وتمردت عليه. وكان من أبرز المتمردين قائد يدعى بهرام الذي انضم إليه عدد كبير من الشعب الفارسي. فالتجأ كسرى بن هورامزدا إلى موريقي [موريس] ملك الروم. وأرسل إليه رسالة سرية مع قائد جيش الروم في تراقيا إيوانيس رصافيا [يوحنا الرصافي]، مستعرضاً ما حدث له، ومبدياً استعداده لزيارته إن أذن له. ففرح الملك وعاهده على المساعدة في كل شيء. فجاء كسرى إلى الرها فرحاً، فقبله ايوانيس

---

(1) ت ي ص 110، وت خ ج 3 ص 229.

(2) ت ي، ص 117.



رصافيا في بيته، وكتب إلى موريقي متعهداً بأن يكون كعبد له. فأجابه: بل صديقاً، وتعهد باحترامه كأب لابنه، ومكث في بيت ايوانيس حتى وصله الجواب من الملك.

فزود موريقي كسرى بجيش قوامه عشرون ألف جندي بقيادة ايوانيس رصافيا، وآخر بقيادة انسطاس قوامه عشرون ألف أخرى من الأرمن وبوقلانيين، وأرسل معهم 14 قنطار ذهب كنفقات فتسلمها كسرى وعاد إلى بلاده. أما المتمردون فتأهبوا للقتال، وانضم رومينان الفارسي إلى كسرى ومعه عشرة آلاف جندي، وبدأت الحرب فهزم المتمردون وهربوا فقبض عليهم وقتلوا باستثناء الذين انضموا إلى كسرى. وبذلك خضعت مملكة فارس بأسرها للملك الجديد. وأغدق كسرى على جيوش الروم عطايا وفيرة، إضافة إلى أربعمائة درهم لكل جندي، كما أرسل هدايا ثمينة وأحجاراً كريمة لموريقي، وأعاد دارا ورأس العين إلى الروم، بعد أن كان والده قد احتلهما عام 572م. وبناء على طلب كسرى، زوجه موريقي ابنته ماريا فرافقها أساقفة ونفر من الشعب. وبنى كسرى ثلاث كنائس فخمة، وساد السلام بين المملكتين[1].

مقتل موريقي:

غير أن موريقي الذي حقق السلام مع الفرس [باتفاق بنوده كانت لصالح الروم]، تجبر وتعجرف وأهان كبار رجالات المملكة والجيش وقطع عنهم الرواتب، وأخذ الشك يساورهم عندما بدأ البلغار يسرقون مناطق تراقية، فتصداهم الروم بقيادة فيليفيقس وهزموا البلغار وعادوا. ورغم كل ذلك لم يدفع الملك الرواتب. فاجتمعوا وقالوا له:

---

(1) ت م الموجود داخل ت خ ، ج 3 ص 261.



ولئن أحل الله السلام في عهدك، فالسلام وحده لا يقيت الفرسان ما لم يتسلموا حقوقهم. فإن لم تعطنا حقوقنا، فنحن منذ الآن أعداؤك. فلم يأبه لتهديدهم بل سخر منهم. فطلبوا إلى أخيه بطرس أن يتزعمهم فأبى وأخبر موريقي بالأمر، فخاف وهرب واختفى في خلقيدونية. وأخيراً وصل الجيش إلى العاصمة فلم يعثر على موريقي، فنصّب شيخاً وضيعاً يدعى فوقا [فوكاس] ملكاً. ولما عثروا على موريقي أتوا به إلى العاصمة وقتلوا أولاده أمامه ثم قتلوه، وتولى الحكم بعده [بشكل رسمي] فوقا وكان ذلك حوالي سنة 602م[1].

عودة الحرب بين الروم والفرس

لقد تألم كسرى ملك الفرس لدى سماعه أن الروم قتلوا موريقي وأولاده، فلبس السواد، وأمر كبار رجاله أن يفعلوا كذلك. وأقام مناحة لعدة أيام، وكانت المراثي تتلى على مسامع شعب فارس، جزاء ما صنعه موريقي من جميل لكسرى ولمملكة فارس. ثم أخذ يتحين الفرصة للسيطرة على مملكة الروم، فتظاهر بأنه يريد الانتقام من الذين أساءوا إلى الملك. فقال على مسمع جيوشه: أيها الزعماء وقواد جيوش مملكتي. من منكم مستعد لتنفيذ رغبتي في الانتقام الذي سأنزله بمملكة الروم. فبرز رومنيان الخبير بشؤون الحرب

---

(1) ت خ، ج 3ص 264، وت ز، ص 51. وهنا يوجد تعارض في المعلومات بين كتاب هذه التواريخ في فترة حكم موريقي، فميخائيل يجعلها عشرين سنة ويقول الزوقنيني أن هناك ملكان دعيا موريقي فالأول الذي مات سنة 602م هو غير موريقي الذي مات سنة 612، وهذا الخلط يؤيده سيغال مؤلف كتاب الرها. وهذا التميز بين موريقين، لا يتساوق مع الأحداث لأن كسرى اتخذ مقتل موريقي ذريعة للهجوم على الإمبراطورية اليزنطية ونقص السلام الذي ساد طيلة فترة حكم موريقي.



ووقف في الوسط وشبك يديه وقال للملك: أني مستعد لتنفيذ إرادتك وأواجه الروم دون أن أرحم شيوخهم أو شبانهم. ففرح الملك وقال له: من الآن لن تدعى رومنيان، بل شهربرز الذي يعني الخنزير البري. فجهز جيشاً واتجه نحو بلاد الروم.

وفي السنة 915 يونانية [604 م]، وهي السنة الثانية لفوقا، احتل الفرس دارا ودخلوا طور عابدين وحلوا في حصن كيفا مدة سنتين دون أن يؤذوا أحداً غير الروم الذين كانوا يقتلون حيثما وجدوا. فسلم الحصن بيد الفرس. فلما سمع الروم في ماردين تركوا الحصن وهربوا، فدخل الرهبان الكهنة حصن ماردين فجاء الفرس لمحاربتهم، فطلبوا إلى باسيليوس أسقف كفرتوثا أن يأذن لهم بقتل الفرس. وفي سنة 918 يونانية [607 م] سلم حصن ماردين المنيع إلى الفرس. وفي تلك السنة عينها احتلوا آمد(1).

ويذكر المؤرخ الزوقنيني في هذه الفترة خبراً عن قيام ملك الروم فوقا (فوكاس) بفرض التعميد واعتناق المسيحية على جميع اليهود الواقعين تحت سلطانه، فأرسل قائده كيوركي إلى فلسطين لكي يلتزم اليهود بالتعميد، وعندما تلكأ رؤساءهم قام الروم بتعميدهم جميعاً بالقوة(2).

مصرع فوقا:

وفي السنة السابعة لفوقا، سيطر الفرس على بعض مقاطعات الروم حتى الفرات، وفي سنته الثامنة وهي سنة 921 يونانية [610 م]، اجتاز الفرس إلى الغرب عن طريق الفرات واستولوا على منبج وقنسرين وبيروا (حلب) وأنطاكية، وفيما كان الفرس يحتلون، كان فوقا يفتك

---

(1) ت خ، ج 3 ص 269.
(2) ت ز، ص 51- 52.



بالزعماء وسواهم، حتى نقص عدد الأحرار والمقاتلين، فشاعت أخبار فوقا السيئة. وكان في إفريقية، بطريقان قويان اسم الأول غريغوريوس والآخر هرقل. فاتفقا وتمردا على فوقا، وأرسلا أولادهما على رأس الجيوش، وتم الاتفاق على أن يسلك أحدهم طريق البحر والثاني طريق البر، ومن وصل أولاً، ينصب ملكاً، ويعين الآخر قيصراً. فوصل إلى القسطنطينية أولاً هرقل بن هرقل الذي سلك طريق البحر وكانت الرياح مواتية. فلما سمع أهل المدينة فرحوا جداً واندفعوا لاستقباله وأدخلوه باحتفال مهيب. وقتل فوقا من قبل الروم، وعومل بمثل ما عامل. لقد بدأ حكم هرقل سنة 922 يونانية [610-611 م]. أما الفرس فاكتسحوا في الفترة اللاحقة [بين عامي 613-614] ولاية سورية [مركزها حمص] وولاية فينيقيا [دمشق ولبنان والساحل] وأرمينيا وقبادوقية [بلاد غربي الأناضول] وفلسطين [بولاياتها الأولى والثانية والثالثة]، واحتلوا غلاطية وبابلا الداخلية حتى خلقيدونية، فيما كان الروم منهمكين في سفك دماء بعضهم البعض. وقد أثار يهود أنطاكية في أثناء ذلك فتنة وقتلوا عدداً كبيراً، بينهم أنسطاس البطريرك الخلقيدوني[1].

---

(1) ت خ، ج 3 ص 269.




مكتبة
الفكر الجديد

هرقل ملكاً

في السنة التي ملك هرقل على الروم، [أي 610 م] حدث كسوف لمدة أربع ساعات، وانحبست الأمطار، وهلكت الزروع، واختفت الحبوب فحدثت مجاعة.. وفيها جاء قوم من ولاية العربية، [أي من بلاد الغساسنة] إلى ولاية سورية [التي مركزها حمص]، فسبوا ونهبوا ودمروا عدة مناطق وقتلوا الكثيرين، وأحرقوا دون رحمة أو شفقة[1].

هرقل يطلب السلام من الفرس:

لقد بدأ حكم هرقل سنة 922 يونانية وهي السنة الـ21 لكسرى، وقتل فوقا من قبل الروم الذين قتلوا موريقي وأولاده. ولدى تسلمه عرش المملكة، أرسل هرقل وفداً إلى كسرى ملك الفرس ينشد السلام، وقال: لقد قتلنا فوقا لأنه قتل صديقكم الملك موريقي. اعتقاداً منه بأنه من الممكن أن تتم المصالحة بمثل هذه المراوغات، غير أن كسرى لم ينخدع. فهو لم يكتف بعدم عقد الصلح مع الروم، بل أخذ منهم عدة مناطق في تلك السنة التي ملك فيها هرقل، حيث أغار الفرس على أنطاكية واحتلوها، فاشتبكت جيوش الروم مع الفرس وهزم الروم بعد أن أجهز الفرس على عدد كبير منهم[2].

(1) ت خ، ج3 ص 291.

(2) ت خ، ج3 ص 292.



فتوحات الفرس:

وفي السنة الثانية لهرقل والسنة الـ22 لكسرى، احتل بهرام قائد جيش الفرس قيصرية قبادوقية وقتل ربوات من سكانها وسبى ونهب ثم عاد.

وفي السنة الرابعة لهرقل، أخضع شهربرز دمشق للفرس.

وفي السنة التالية [الخامسة لهرقل] استولى على الخليل وحوض الأردن.

وفي السنة السادسة لهرقل، احتل شهربرز أورشليم [بيت المقدس] ودخلها وقتل تسعين ألفاً من سكانها، وكان اليهود يشترون المسيحيين من الفرس بقيمة زهيدة ويقتلونهم.

وقد أسر الفرس زكريا أسقف أورشليم الخلقيدوني وأرسلوه إلى فارس صحبة خشبة الصليب. كما أجلوا اليهود الذين كانوا يشترون المسيحيين ويقتلونهم، ولم يتركوا في أورشليم وضواحيها يهودياً واحداً.

وفي السنة التالية [السابعة لهرقل]، دخل شهربرز مصر واحتلها، وفتح الإسكندرية وقتل العديد من أهلها، كما أخضع لفارس ليبيا أيضاً حتى حدود الحبشة.

وفي تلك السنة نفسها، غزا شهرين الفارسي خلقيدونية واحتلها بالقوة وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً، ثم عاد سالماً.

وهكذا بسط الفرس نفوذهم على بلاد الروم، وفي ما بين النهرين وسورية وقيليقية وفلسطين ومصر وساحل البحر برمته، ونهبوا وأسروا شعباً لا حصر له. وجلبوا إلى فارس ثروات وعبيداً وغيرها من الأشياء، وأعمدة المرمر وقطعاً كثيرة جداً من المرمر، من رومية وسورية وبقية مناطق الغرب.



وفي هذه الأثناء عين هرقل ابنه قسطنطين قيصراً، ليرسله على رأس جيش لمحاربة الفرس الذين كانوا قد سيطروا على قسم من بلاد الروم، ممتد من ساحل بحر بونطس [البحر الأسود] حتى المشرق.

وفي هذه الأثناء برز اسم محمد في العربية الداخلية، [أي الجزيرة العربية] حين كان يقوم برحلات تجارية إلى ولاية العربية [التي عاصمتها بصرى] وفلسطين[1].

(1) ت خ، ج3 ص 2931.




مكتبة
الفكر الجديد

قيام دولة الإسلام في يثرب

في سنة 933 يونانية، والثانية عشرة لهرقل، والـ33 لكسرى، بدأت دولة العرب (المسلمين) عندما جاء إلى منطقة يثرب، محمد من قبيلة قريش، وقال إنه نبي، ودعى أتباعه «مسلمين» أو «اسماعيليين أو هاجريين» نسبة إلى هاجر وإسماعيل، وسرقيين نسبة إلى سارة[1]، ومذيانيين أبناء قنطور. ولكن ولئن تعددت تسميتهم، غير أن اسمهم العام هو «العرب» وهم يطلقون على نفسهم هذه التسمية وهي مأخوذة من العربية الخصبة التي هي موطنهم، وهي المنطقة المحصورة بين نهر الفرات شمالاً حتى البحر الجنوبي، ومن البحر الأحمر حتى خليج بحر فارس شرقاً.

كان محمد بن عبد الله يذهب إلى فلسطين للتجارة.. وإذ رأى أبناء شعبه يتعبدون للحجارة والخشب وغيرها من المخلوقات، .. طرح عبادة الله على أبناء أمته فأطاعته قلة في بادئ الأمر، ثم أخذوا بالتزايد، وإذ قوي أخذ يأمرهم رسمياً بإطاعة الخالق، مرهباً حيناً ومرغباً حيناً آخر، وحينا يمتدح أرض فلسطين بقوله: لقد أعطيت تلك الأرض الطيبة لأولئك الناس، نظراً إلى إيمانهم بالله الواحد. وقال لهم أيضاً: إذا أطعتموني ونبذتم هذه الآلهة الباطلة وآمنتم بالله

---

(1) السراسين أو السراكين (Saracens) هي التسمية التي كان يطلقها الروم على العرب ولتفسير ذلك راجع دراسة ديفيد غرافس، أصل اسم العرب في اللاتينية، منشورات دار قدمس 2003م.



الواحد، فإن الله سيعطيكم تلك الأرض الطيبة......... ووضع للمسلمين شريعة قال إن الله أنزلها عليه. فعلمهم أن يؤمنوا بإله واحد خالق الكل وأقنوم واحد لم يولد ولم يلد ولم يكن له كفء أو شريك. وهو يقبل أسفار موسى والأنبياء وقسماً من الإنجيل، لكنه ترك معظمه، ومال إلى الأمور البسيطة.

أما نظرته إلى المسيح فهي: أن المسيح هو الشخص الذي تنبأ عن مجيئه الأنبياء، لكن كإنسان بار ونبي كسائر الأنبياء، وليس كإله أو ابن الله كما نؤمن نحن المسيحيين، غير أنه أكبر من سائر الأنبياء لأنه لم يولد من زواج بل بكلمة الله نفخها في مريم كما نفخ في آدم فخلق من التراب، ثم نفخ فيه الروح القدس فاستقام، لذا فهم يسمونه أحياناً كلمة الله وروحه، على اعتبار أنه عبد وخليقة كلمة الله، وهذا بدلاً من عبارة (ابن الله) التي نتداولها نحن، لأنه ولد منه دون ألم كولادة الكلمة من العقل، إنهم ينظرون إليها نظرة مادية، ويتهموننا بأننا نؤمن بأن الله أولده من امرأة وهي، في نظرهم، مريم أخت هرون وموسى. أما عن صلب اليهود للمسيح فإن معظمهم لا يعترفون به، لكنهم يقولون: إن الله ألقى شبهه على أحد تلاميذه فصلب ومات، أما المسيح فتوارى، حيث أن الله أخذه إلى الفردوس. إنهم يصلون خمس مرات في اليوم، وفي كل صلاة يركعون أربع ركعات. يؤمنون بقيامة الأموات والحساب والمجازاة، كل بحسب أعماله. إنهم مغرمون بمحبة العالم .. والأكل والشرب واللبس وتعدد الزوجات. ولا مانع من أن يطلق أحد زوجته ويتزوج بأخرى، يصومون ثلاثين يوماً طوال النهار، ويأكلون طوال الليل حتى الفجر، يتوضؤون بالماء قبل الصلاة ويغسلون أعضاءهم، وفي حالة اقترابهم من المرأة أو



الاحتلام، يطهرون جسمهم كله ومن ثم يصلون. وقبلتهم هي الكعبة حيثما كانوا، وهم يمارسون الختان ذكوراً وإناثاً. دون أن يتقيدوا بشريعة موسى التي تقضي بأن يتم الختان في اليوم الثامن، لكنهم يختنون في أية سن كانت[1].

(1) هذا النص هو معظم التقرير الكنسي الذي أعده رجال دين سريان عندما ظهرت الدعوة الإسلامية، ملخصين ما عرفوه عن هذا الدين الجديد، رغم ما في ذلك من بعض المغالطات التي أضيفت في فترات لاحقة ولم نر فائدة في نشرها. وقد ورد في تاريخ ميخائيل الكبير (ت خ، ج3 ص 298- 300) وفي تاريخ الرهاوي المجهول بالنص نفسه (ص 139- 141)، وكذلك في تاريخ ابن العبري بشيء من التصرف، وبكثير من الاختصار في تاريخ الزوقنيني المنحول (ص 52).




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الأخير من صراع الروم والفرس

في السنة الثانية عشرة لهرقل [622 م] عاد الروم واحتلوا مصر وطردوا الفرس، وأثار قورس اضطهاداً على المؤمنين [الأقباط] هناك. وعلى مؤمني سورية [السريان] للسبب نفسه. وبعد أن زال نفوذ الفرس وحكم الروم واحتلوا مدناً في سورية وبين النهرين، جاء الملك هرقل إلى سورية ووصل إلى الرها فاستقبله الشعب والكهنة والرهبان، فاندهش وأثنى على كثرة الرهبان. ولما عرف عقيدتهم، قال لبعض الذين معه، كيف يجوز لنا أن نترك هذا الشعب الرائع بعيداً عنا، فدخل المدينة واهتم بمصالحة الجانبيين. وفي العيد قصد كنيستنا الأرثوذكسية [السريانية] وأبدى احتراماً فائقاً للشعب، وفي نهاية القداس تقدم ليتناول الأسرار كعادة الملوك المسيحيين، فمنعه أشعيا أسقف المدينة عن التناول، وقال: إن لم تحرم مجمع خلقيدونية وطومس لاون تحريرياً، لا أسمح لك أن تمس الأسرار، فغضب هرقل وطرد الأسقف من الكنيسة الكبرى وسلمها للخلقيدونيين، وخرج من الكنيسة أيضاً مع الأسقف والزعماء الذين كانوا على رأس آل رصفيا وآل تلمحري وآل قوسما بن أراباي وغيرهم، الذين جهزوا الكنيسة بجميع آنيتها وأوقافها، وكانوا يتوقعون أن يعودوا إلى الكنيسة مع الأسقف بعد مغادرة الملك.

ولما ذهب الملك إلى منبج، قابله البطريرك اثناسيوس يرافقه 12 اسقفاً هم: توما أسقف تدمر، باسيليوس أسقف حمص، سرجيس أسقف عوص، يوحنا أسقف قوروس، توما أسقف منبج، دانيال أسقف حران، أشعيا أسقف الرها، ساويرا أسقف قنسرين، اثناسيوس



أسقف ارابيسوس، قوزما أسقف ابيفانيا قيليقيا، ساويرا أسقف شميشاط. وأمضوا لديه 12 يوماً يناقشونه، فطلب منهم منشوراً يتضمن عقيدتهم فقدموا له المنشور المذكور أعلاه، فلما قرأه امتدح إيمانهم، وطلب إليهم أن يناولوه ويقبلوا الوثيقة التي أصدرها والتي فيها يعترف بطبيعتين متحدتين للمسيح، وإرادة واحدة وفعل واحد مثل كيرلس، غير أنهم لاحظوا أنه يتفق مع نسطور ولاون فرفضوها، فغضب هرقل وكتب إلى كافة أنحاء المملكة يقول: كل من لا يقبل مجمع خلقيدونية يقطع أنفه وآذانه وينهب بيته.

واستمر هذا الاضطهاد مدة غير يسيرة، فقبل العديد من الرهبان المجمع. وظهر غش رهبان جماعة مارون والمنبجيين والحمصيين والمناطق الجنوبية. وهكذا قبل معظمهم المجمع واغتصبوا الكنائس والأديرة، ولم يسمح هرقل لأحد من الأرثوذكس بزيارته، ولم يقبل شكواهم بصدد اغتصاب كنائسهم. وإن الله إله النقمة الذي وحده له السلطان على كل شيء، هو الذي يغير الملك كما يشاء ويعطيه لمن يشاء، ويقيم عليه الضعفاء، إذ رأى خيانة الروم الذين كانوا ينهبون كنائسنا وأديرتنا كلما اشتد ساعدهم في الحكم، ويقاضوننا بلا رحمة، جاء من الجنوب بأبناء إسماعيل، لكي يكون لنا الخلاص من أيدي الروم بواسطتهم. أما الكنائس التي كنا قد فقدناها باغتصاب الخلقيدونيين إياها، فبقيت بيدهم، لأن العرب، لدى دخولهم المدينة، أبقوا لكل طائفة ما بحوزتها من الكنائس. وقد فقدنا في هذه الفترة كنيسة الرها الكبرى وكنيسة حران، غير أن فائدتنا لم تكن يسيرة، حيث أننا تحررنا من خبث الروم ومن شرهم وبطشهم وحقدهم المرير علينا، وتمتعنا بالطمأنينة[1].

---

(1) ت خ، ج3 ص301- 302.



في السنة الأولى لمحمد، احتل شهربرز الفارسي انقورا ثم رودس، وعامل كسرى الذين وقعوا تحت سيطرته بالقسوة، حتى أن اللسان ليعجز عن الحديث عن الضيقات والسلب والضرائب والسبايا والقتل التي حدثت في أعقاب انتصار كسرى الفرس[1].

تشتت كلمة الفرس

وفي سنة 936 يونانية وهي السنة الـ 15 لهرقل [625 م] والـ35 لكسرى والرابعة لمحمد، غزا شهربرز وقدريكين، القسطنطينية واجتازت جيوشهم إلى تراقيا، ومنها غزوا الجهة الغربية، فاحتلوا المدينة مدة سنة وضيقوا عليها الخناق حتى لم يبق أمل في إزاحته، ولكن الخلاص جاءهم على حين غرة. فقد وصل إلى مسامع كسرى أن شهربرز يستهين به ويصفه بالمتعجرف الذي يفتخر بنصر ليس من صنائعه. فأبلغ قدريكين ليقطع رأسه، لكن الروم قبضوا على حامل الرسالة، فلما عاد هرقل بالأمر، استدعى شهربرز وأقسم له بخصوص حقيقة تآمر كسرى عليه. ففكر شهربرز في خدعة، فغير رسالة كسرى وأدخل عبارة «ويقتل مع شهربرز 300 من القادة».

فلما تليت الرسالة قال شهربرز لقدريكين، أيحسن لك أن تفعل هذا؟ فغضب القادة جداً وأخذوا يسخرون من كسرى، وعقدوا صلحاً مع هرقل وأعطى الفرس هرقل بعض الرهائن تنفيذاً للشرط الذي بينهم، ومن بين الرهائن ابن شهربرز. وعاد الفرس.

فأرسل هرقل إلى خاكان ملك الخزر يطلب 40 ألف جندي ليحارب ملك الفرس. فأجابه: سيغادر الجيش باب قسفيا ويلقاك حيثما تشاء. فوعد هرقل، لقاء ذلك، أن يزوج ابنته اوديسا من خاكان.

---

(1) ت خ، ج3 ص 302.



فاتجه هرقل صوب أرمينيا، وأية منطقة بلغها، كان يطرد منها الفرس، ويقيم فيها روماناً. فلما سمع كسرى أن شهربرز قد تمرد وأن هرقل يتجه نحو بلاده، صغرت نفسه وضاق ذرعاً، فجمع الفرس بالروم وهزم الفرس وقتل قائدهم. ولما بلغ كسرى مقتل قواده، هرب من سقرتا، تاركاً أمواله وثرواته، فطارده هرقل ودخل قلعة سقرتا ونهب الثروة وأحرق المدينة.

في سنة 932 يونانية والـ 17 لهرقل [627 م] والـ 37 لكسرى والـ6 لمحمد، اختفى نور نصف كرة الشمس، واستمر من تشرين الأول حتى حزيران، واعتقد الناس أن قرص الشمس لن يعود كما كان.. في هذه السنة انتشر وباء الطاعون في فلسطين وراح ضحيته عدة ربوات.

مقتل كسرى على يد ولده

وأطلق شيري بن كسرى من السجن حيث كان والده قد زجه فيه. فلما علم بهروب والده، طارده ولحق به وقتله وتسلم الحكم.

وعاد هرقل ليشتي في آثور [بلاد الجزيرة الفراتية] على أمل أن يطارد كسرى فيما بعد، غير أن شيري أخبره بقتله والده، فعقد صلحاً معه اشترط فيه مغادرة الفرس مناطق الروم وعودتهم إلى بلادهم.

فوجه من ثم هرقل أنظاره إلى مناطق سورية التي غادرها الفرس، وأرسل إليها ثاودريقي أخاه. أما الفرس، فإذ علموا بعهد الصلح من رسائل شيري وشهربرز استخفوا به وقالوا: لن نخضع لشيري.



وكان اليهود يساعدون الفرس حقداً منهم على المسيحيين. فلما وصل ثاودريقي إلى الرها شتموه وسخروا منه وقاوموه وتزاحم الفرس، ووعدوا أن يتركوا المدينة. وأن رجلاً يهودياً يدعى يوسف، خشي أن يهلل الشعب، رمى بنفسه من السور ليلاً وذهب إلى هرقل في تللا، والتمس منه أن يشير إلى ثاودريقي ليغفر لهم إساءتهم. فلما دخل ثاودريقي الرها وأخرج الفرس، جمع اليهود، وما إن باشر بقتلهم حتى وصل يوسف حاملاً أمراً بعدم الإضرار بهم، ثم جاء هرقل إلى الرها، ومن هناك اجتاز إلى مدن سورية.

وفاة شيري وتشتت الحكم

توفي شيري الفارسي سنة 940 يونانية [629 م] بعد حكم دام تسعة أشهر، وخلفه ابنه أردشير مدة سنة وعشرة أشهر، لكن شهربرز قتله وتسلم الحكم، وثبت العهود بينه وبين الروم.

وفي سنة 941 يونانية، والـ 20 لهرقل [630 م] والثانية لأبي بكر، غادر الفرس مصر وفلسطين وكافة مناطق الروم، وعادوا إلى فارس حيث انقسموا على بعضهم، فتبع قسم منهم شهربرز وانضم القسم الآخر إلى قدريكين. فاستنجد شهربرز بهرقل، فأرسل جيشاً لنجدته فقتل قدريكين وحكم سنة واحدة، ثم قتله أحد أقاربه وكان صديقاً لكسرى، فخلفته في حكم الفرس بارم ابنة كسرى لبضعة أشهر وماتت، فخلفتها أختها زريوندخت وخلال سنتين، تسلم العديد منهم الحكم في فارس ورحلوا وهم، شهربرز، بارم، كسرى، فيروز زريوندخت، وهرمزد.



أحداث متنوعة:

بعد قيام دولة المسلمين [في المدينة] بسبع سنوات[1] توفي محمد، فخلفه أبو بكر لمدة سنتين وسبعة أشهر[2].. عاد الرهاويون من بلاد فارس، والذين تخلفوا اعتبروا جالية. أما هرقل فسقط لتعديه الناموس باتخاذه مرطينا ابنة أخيه زوجة، وأنجب منها ابناً غير شرعي هو هرقلون.

بعد أن أدّب قورا الرها، ونهبت فضة الكنيسة القديمة وآنية كافة الكنائس والفضة المحلاة بها المذابح وقبة المذبح وأعمدته الأربعة والأعمدة الأخرى، وأرسل إلى كسرى أكثر من مئة ألف رطل، أمر كسرى أن يسبى الرهاويون إلى فارس بالسرعة الممكنة، وكان المرزبان فيها رجلاً حكيماً، فرأى من الأفضل أن لا يجلوا دفعة واحدة، بل على دفعات، على أمل أن يصل عفو من الملك، وبعد أن أرسل أول دفعة، بلغه أن هرقل متجه نحو فارس، فظل ما تبقى من الشعب في الرها[3].

---

(1) توفي الرسول العربي في السنة ضحى يوم الاثنين 12 ربيع الأول عام 11 للهجرة الموافق 8 حزيران عام 632 وذلك في المدينة المنورة.

(2) استمرت خلافة أبي بكر قرابة السنتين وأربعة أشهر.

(3) ت خ، ج3 ص 303- 305. وينسب المؤرخ التلمحري جميع المعلومات السابقة لكتاب تاريخي وضعه سرجي بن إيوانيس رصفيا، الذي كان أسيراً لدى الفرس وأطلق سراحه في هذه الفترة.



في خروج المسلمين إلى مناطق الروم والفرس

بعد وفاة محمد خلفه أبو بكر، فأرسل أربعة قواد على رأس جيوش، أحدها إلى فلسطين والآخر إلى مصر، والثالث إلى فارس، والرابع ضد العرب المسيحيين وعادوا جميعهم ظافرين[1].

[معركة داثن]

فالجيش الأول اتجه إلى فلسطين. فجمع البطريق سرجي [قائد حامية قيصرية فلسطين] جيشاً من الروم والسامريين مؤلفاً من خمسة آلاف راجل واستعد لمحاربة المسلمين. غير أن جانب المسلمين كان الأقوى فسيطروا على الروم، وأبادوا أولاً السامريين، فلما رأى البطريق ذلك دار ظهره وهرب. فطاردهم المسلمون ودمروهم وحصدوهم حصد السنابل، وفجأة سقط البطريق من فرسه، فوضعوه على الفرس ثانية، ثم سقط للمرة الثانية، وعاد وركب الفرس، فطورد فسقط للمرة الثالثة. فقال لمن معه اتركوني وانجوا بأنفسكم، لئلا تشربوا أنتم أيضاً معي كأس الموت الذي قضاه الله على مملكتنا لغضب العدالة علينا، فتركوه

---

(1) المعروف أن أبا بكر أرسل أربعة قادة على أربعة أجناد إلى الشام، وأرسل جيشاً بقيادة خالد بن الوليد إلى العراق لقتال الفرس.



وهربوا، فأدركه المطاردون وقتلوه بضربة سيف. واستمر المسلمون يطاردون الروم حتى المساء ولم ينج منهم سوى نزر يسير، فأذاعوا هذا في قيصرية. وهكذا تكللت بالنجاح جهود المسلمين حيثما ذهبوا، فهابهم الملوك وجيوشهم[1].

في أيلول من عام 945 يونانية [633 م]، حدثت هزة عنيفة، عقبتها إشارة في السماء، وهي ظهور ما يشبه الحربة قادمة من الجنوب نحو الشمال، وظلت ثلاثين يوماً، واعتقد الكثيرون بأنها دلالة على مجيء المسلمين..

في هذه الفترة أصدر هرقل ملك الروم أوامر بوجوب اقتبال جميع اليهود الذين في مملكته العماد فتنصروا. وهرب قسم منهم من مناطق الروم، وجاؤوا إلى الرها، ولما ضيق عليهم الخناق هربوا إلى فارس، في حين أن كثيرين منهم اقتبلوا المعمودية وتنصروا[2].

وفاة الخليفة أبو بكر

في عام 946 يونانية، والـ 24 لهرقل [634 م] والـ 13 هجرية، توفي أبو بكر بعد حكم دام سنتين، وخلفه عمر بن الخطاب، فأرسل جيشاً إلى ولاية العربية واحتل بصرى وفتح عدة مدن.

---

(1) ت خ، ج3 ص 306. وتشير المصادر البيزنطية وخصوصاً ثيوفان إلى أن سرجي المذكور في النص السرياني أو سرجيوس أتى إلى داثن من قيصرية فلسطين، راجع بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة ص 137. وهنا يخلط المؤرخون السريان في الجغرافيا فيجعلون معركة داثن هذه قرب قيصرية مع أنها في جنوب فلسطين قرب غزة.

(2) ت خ، ج3 ص 306.



[معركة أجنادين]

لدى سماع هرقل أن المسلمين قتلوا البطريق سرجي وتبدد جيشه، أوعز إلى أخيه ثاودريقي فعبأ جيشاً لمحاربة المسلمين، فانطلق بتجبر وخيلاء متكلاً على القوة البشرية، وسخروا وهزوا رؤوسهم قائلين: من هم أولاد هاجر، ليسوا سوى كلاب مائتة. ووصلوا إلى قرية كوسيت في كورة أنطاكية، وكان هناك رجل خلقيدوني(1) يقيم فوق عمود شبه متوحد، فجاءه ثاودريقي مع بعض الزعماء وتحدثوا إليه لبعض الوقت. قال لثاودريقي: أنا أدري أن زمام حكم الروم مسلمة إليك كما كانت مسلمة إلى أخيك، وأنا واثق من عودتك منتصراً إذا ما تعهدت بإبادة جماعة يعقوب [يقصد يعقوب البرادعي وهم السريان] قبل أن تطلب مني، وكان بين مرافقيه ضابط أرثوذكسي، اتقد غيرة لدى سماعه هذا الحديث، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً في حينه خوفاً من الحاكم. ولما قابل المسلمين متكلاً على الكبرياء الفارغ، ضرب معسكره بالقرب منهم، ثم تقابل الطرفان، فهزم المسلمون الروم، وطاردوهم وداسوا عليهم كأغصان منبوذة.

بعد أن استنفدت قوة الروم، دنا ذلك الضابط من ثاودريقي وقال له: ترى أين هي وعود العمودي الذي وثقت به، ألعلك راجع مرفوع الرأس؟ فخجل ثاودريقي الذي بالكاد استطاع النجاة مع فئة قليلة، وأخفى نفسه لئلا يراه أحد. وبعد هزيمة الروم، دخل المسلمون

---

(1) أي راهب عمودي نسبة لسمعان العمودي وطريقته بالتنسك على عمود، وكان هذا الراهب يتبع العقيدة الخلقيدونية المنسوبة لمجمع خلقيدونية اليونانية وهي العقيدة الملكية المسماة اليوم الأرثوذكسية، والتي كانت في حرب طاحنة مع عقيدة السريان حول طبيعة السيد المسيح.



معسكرهم وغنموا ما فيه من ذهب وفضة وعبيد وأموال طائلة، فأثرى المسلمون وتوسعوا على حساب ما احتلوه من بلاد الروم[1].

سقوط كنيسة القيامة:

حدثت في هذه الفترة هزة هائلة، وفي الوقت ذاته أظلمت الشمس، وعلى إثر الهزة سقطت كنيسة القيامة وكنيسة الجلجلة، وغيرها في أماكن أخرى. فأعاد بناءها الأسقف مادوسطس الخلقيدوني. وفي هذه الفترة خرج الفرس على الروم، وطرد أشعيا أسقف الرها وجميع الأساقفة الأرثوذكسيين، ودخل الخلقيدونيون الكنائس. وبعد فترة سيطر المسلمون على بين النهرين وطرد الأسقف الخلقيدوني قورس من الرها، وعاد الأساقفة الأرثوذكسيون إلى كراسيهم في كافة أرجاء النفوذ الإسلامي[2]. وفي هذه الفترة، تفشى وباء فتاك في سائر مناطق سورية وفينيقيا، وظهر نجم هائل على هيئة شخص رومي، وحدث زلزال في منطقة أرمينيا ودمر عدة أماكن[3].

[فتح بلاد الفرس]

وفي السنة التالية أرسل عمر جيشاً إلى فارس، وكان الفرس منقسمين ومتقاتلين، إذ كان بعضهم يريدون يزدجرد بن كسرى، والبعض الآخر هورمزد، فدارت الحرب بينهم وانتصر المسلمون، وقتل الفرس وضعفت مملكتهم، كما قتل هورمزد فيما بعد، فحكم يزدجرد. أما المسلمون فتفوقوا على كل من الفرس والروم.

---

(1) ت خ، ج3 ص 312- 313. والمصادر البيزنطية تتحدث عن أن شقيق هرقل ثيودور كان من قادة معركة أجنادين [بيزنطة والفتوح الاسلامية المبكرة، ولتر كيغي، ص 147].

(2) إشارة إلى تعاطف العرب المسلمين مع السريان اليعاقبة.

(3) ت خ، ج3 ص 313.



معركة اليرموك

في السنة الـ4 لعمر بن الخطاب خليفة المسلمين، غزا المسلمون مناطق سورية حتى سواحل نهر الفرات. وفي السنة الـ5 لعمر[1]، أثار روم الولاية العربية حرباً على العرب ومدينة جابيثا [الجابية] وتقع على النهر المعروف بـ (اليرموك)، وهزم الروم شر هزيمة وغادروا المنطقة، وكان قيام الحرب على النحو التالي:

لقد جمع القائدان بانيس [أو بانوس][2] وابن شهربرز الفارسيين جيشاً واتجهوا صوب دمشق لحماية تلك المنطقة، فلاقاهم قائد المسلمين وقتل منهم عدداً كبيراً، ولما وصلوا إلى دمشق عسكروا بالقرب من نهر فرفر الذي يسميه المسلمون «كرون»[3].

وفي السنة التالية جاء المسلمون إلى دمشق أيضاً فخاف البطريق وأرسل إلى وكيل الملك [المالي] في الرها [اسمه ثيودور تريثوريوس

---

(1) المصادر العربية الإسلامية ترجح أن تكون معركة اليرموك وقعت في السنة الثالثة للخليفة عمر أي 15 هجرية.

(2) يرد عند ميخايل الكبير بانيس، وعند الرهاوي المجهول بانوس، ويرى الباحثون المعاصرون أنه هو نفسه القائد باهان كما يرد في المصادر العربية.

(3) نهر فرر ونهر أبانة هما الرافدان القديمان اللذان يشكلان نهر بردى حسب التراث السرياني، وقد ورد ذكرهما في قصة نعمان السرياني في العهد القديم (2 ملوك 5: 12). أما كرون فلم نعثر له على أثر ولعل خطأ وقع أثناء نسخ الكتاب.



حسب المصادر البيزنطية]، فجمع عشرة آلاف جندي، والتقى بالبطريق في حمص ومعه ستون ألفاً.

فاصطدموا مع المسلمين وهزموا، وقتل في ذلك اليوم أربعون ألفاً من جيش الروم مع بانيس ووكيل الملك، وقد غرق معظمهم في نهر اليرموك. أما ابن شهربرز فنجا وجاء إلى حمص واستسلم للمسلمين، وكتب رسالة إلى الخليفة عمر يقول فيها: أعطني القيادة وجيشاً وسأنزل إلى فارس وأخضعها برمتها. فلما قرأ عمر الرسالة، أراد تنفيذ ما جاء فيها، غير أن بنات كسرى اللواتي أسرن في حران قلن للخليفة، لا تنخدع بكلامه الكاذب، وأخبرنه بما فعله شهربرز وابنه بكسرى وأولاده. فالذي لم يحفظ القسم لملكه وأولاده فقتلهم غدراً، كيف يحفظ القسم لك؟ بل يريد أن يتمرد ويحكم. فأخذ عمر بكلامهن فأرسل وصلب ابن شهربرز على خشبة في حمص[1].

فتوحات المسلمين:

بعد انتصارهم على الروم، جاء المسلمون إلى دمشق، وأعطوا الأمان لأهلها، ثم أخضعوا غيرها من المدن. ومن هناك أرسل عمر خالد (ابن الوليد) على رأس جيش إلى منطقة حلب وأنطاكية وفتكوا بعدد كبير من الناس، بحيث لم يستطع أحد منهم النجاة. ومهما تحدثنا عن المآسي التي قاستها منطقة سورية، فسنظل عاجزين عن الحديث عن جميعها لكثرتها. لأن هذه الضربات كانت نتيجة غضب الله..

---

(1) ت خ، ج3 ص 314.



[الجبهة الفارسية]

في هذه الأثناء، غادر سعد [بن أبي وقاص] يثرب وعسكر بالقرب من مدينة الكوفة أي عاقولا. وجمع يزدجرد ملك الفرس جيشاً وأرسله لملاقاة جيش المسلمين، وعسكروا على ساحل الفرات بالقرب من عاقولا، وأرسلوا أحد أبناء الحيرة يتقن اللغة العربية، ليتجسس عليهم، ولما اقترب منهم فكر في نفسه وقال: سأعرف من جواب من يلاقيني أولاً لمن سيكون النصر. فصادف بدوياً جالساً يتغوط ويأكل خبزاً ويفلي قميصه. فكلم الحيري البدوي بالعربية قائلاً: ماذا تفعل؟ فأجاب: كما ترى، فإني أدخل جديداً وأخرج عتيقاً وأقتل أعدائي.

فتألم الحيري وقال في نفسه: إن شعباً جديداً سيدخل، ويخرج الشعب القديم ويقتل الفرس. فعاد وقص الأمر على الفرس وقال: لقد وجدتهم شعباً حافياً وعارياً وضعيفاً، لكنهم شجعان، وكشف للقائد ما رآه وما فكر فيه، ولما التقى الجيشان هزم الفرس فطاردهم حتى قطسفون [المدائن] الواقعة على دجلة. وهرب أحد قواد الفرس وهو مسلح يرتدي ترساً، فطارده بدوي غير مسلح سوى برمح. وفي إحدى القرى، وجد الفارسي شخصاً في الحقل، فطلب إليه أن يدله إلى مكان يختفي فيه لينجو من مطاردته، فأخفاه. وظل مختفياً بعض الوقت ظناً منه أنه يطارد من قبل كثيرين. وما هي إلا هنيهة حتى ظهر رجل لا يرتدي ثياب الحرب ويمتطي فرساً بشكل غير منظم، ولا تبدو عليه ملامح الجنود، فتعجب وقال: كيف يهرب مرتعباً رجل يرتدي ترساً ومسلح بمختلف الأسلحة، وأضخم جسماً وأهيب منظراً، من أمام رجل



دميم المنظر! فغضب ذلك الرجل واحتقر الفارسي لأنه هرب واختفى من أمام بدوي. فقال له الفارسي: لا تلمني، بل اسمعني وانظر بأم عينك لتؤمن، فانتزع سهماً ورماه بمر حديدي فثقبه وقال: بمثل هذه الرمية رميت البدوي عدة مرات، لكنه كان يطرد السهام بردنه وكأنه يطرد ذبابا. فهل صدقت إذن أن نصرهم هو من الله؟ هذا ما دعاني إلى الهرب.

استشهاد أبيفانوس:

في الفترة التي أرسل هرقل شخصاً يدعى غريغور لحراسة جسر قيليقيا خشية أن يجتازه المسلمون، نال القديس أبيفانوس المظفر شرف الشهادة الحقة من أجل الإيمان القويم. وكان استشهاده على النحو التالي: عندما ابتعد الطوباوي عن المسلمين ودخل منطقة الروم للأمان، أخبر بعضهم القائد غريغور المرسل لحراسة الجسر، وإذ كان متعجرفاً يسخر من المسلمين ويهددهم وجماعة ساويرا [بطريرك السريان]، وعرف أن الطوباوي أرثوذكسي، استدعاه وسأله عن طائفته. فأجاب: أنا من إيسورية [ولاية رومانية جنوب غربي تركيا الحالية]، انحرفت عن طريق الحق، لكن النعمة وعتني فانتميت إلى جماعة ساويرا.. فهدده غريغور وقال: اقبل إيماننا وسيمنحكم الملك نفوذاً عظيماً، وإن رفضت سأسلمك إلى الموت. فأجاب أبيفانوس المجاهد: لا نار ولا سيف يستطيعان أن يفصلاني عن الإيمان الأرثوذكسي الحق الذي أنا متمسك به. وللحال أمر غريغور بقتله، فقال أبيفانوس وهو على وشك الفوز بإكليل الشهادة، لي رجاء بالله أن يكون موت غريغور في سورية ومن خلال حرب. وبعد أن صلى القديس من أجل قاتليه، استشهد بحد السيف. وبعد يوم واحد من



استشهاده وصل قائد جيش المسلمين ويدعى قنان[1]، وهو يقود أسرى، فخرج غريغور لإنقاذ الأسرى، ولدى وصوله إلى مخيم المسلمين، باغتهم المسلمون وضربوهم وأبادوهم، وضربوا الفرس التي كان يمتطيها غريغور، فدعا جندياً ليأتيه بفرس آخر، فلم يستطع ذاك أن ينتظره أو يستجيب له، فلحق به المسلمون وكبلوه وقتلوه كما تنبأ عنه القديس الشهيد أيبفانوس[2].

---

(1) قنان بن دارم بن أفلت بن ناشب بن هدم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس العَبْسي أحد الوفد التسعة، ذكره ابن الكلبي والطبري والدارقطني وغيرهم وذكره أبو إسماعيل الأزدي في فتوح الشام وإنه شهد اليرموك وذكره ابن سعد في الطبقة الرابعة وقال إنه كان مع خالد بن الوليد في وقائعه بالشام كلها وذكر عبد الله بن ربيعة القدامي في فتوح الشام بسنده عن محرز بن أسيد الباهلي قال ثم إن أبا عبيدة أمر خالداً أن يسرعوا المساغ فغلب عليها ونزل على بعلبك فخرج إليه رجال فأرسل فرساناً من المسلمين فواقعوهم حتى أدخلوهم الحصن فطلبوا الصلح، وعد من الفرسان المذكورين قنان بن دارم . [الإصابة في تمييز الصحابة ومعه الاستيعاب في أسماء الأصحاب للفقيه الحافظ المحدث النمري القرطبي المالكي ج3 ص231].

(2) ت خ، ج3 ص 315- 316.




مكتبة
الفكر الجديد

انقراض مملكة الساسانيين

[فتح المدائن]

للمرة الثانية يتجمع الفرس وملكهم على دجلة الذي كان الفاصل بينهم وبين المسلمين ويدمرون الجسر المقام على النهر بين المدينتين، وكان معسكر الفرس هادئاً. أما المسلمون فركبوا رؤوسهم وقالوا: هلموا نعبر إلى الجانب الفارسي، فإن الله الذي عضدنا في البر سينصرنا ويؤازرنا في البحر أيضاً.

فاجتازوا النهر وباغتوا الفرس وهم معسكرون وقتلوهم وفتحوا قطسفون [المدائن] وغنموا مالاً وبشراً. ثم عبأ يزدجرد تجمعاً ثالثاً في عاقولا [الكوفة]، غير أنهم هزموا ودمروا، فتجمعوا للمرة الرابعة في بلد مادي، وهناك أيضاً هزموا وفتك بهم المسلمون. لقد تمت هذه التجمعات الأربعة في سنة واحدة. فلما رأى يزدجرد آخر ملوك فارس أن بلاده دمرت، وقد قضي على جيشه، وهرب الشعب وتشتت، وتأكد من عجزه عن إيقاف تيار المسلمين، هرب إلى حدود الأتراك إلى منطقة مراغاتي [مراغة] المسماة سجستان. وبعد اختفاء دام خمس سنوات قتل، سواء على يد المسلمين أم الأتراك، وبمقتله زالت مملكة فارس المعروفة بمملكة الساسانيين التي حكمت 418 سنة. وقد تأسست سنة 538 يونانية. من قبل أردشير بن ساباق وزالت سنة 956 من نفس التقويم .... يزدجرد آخر ملك في أيام هرقل ملك الروم، وعمر بن الخطاب خليفة المسلمين.



وبعد أن قتل ملك الفرس ودالت دولتهم، سيطر المسلمون على فارس برمتها، فازدادوا بأساً لا سيما وقد نجحوا في كل مكان وحالفهم النصر في الحروب، لأن الله كان يؤيدهم، فجاؤوا إلى حلب وأنطاكية وقتلوا عدداً كبيراً[1].

فرار هرقل

وإذ رأى هرقل ملك الروم أن الحرب استفحلت غادر أنطاكية كئيباً إلى القسطنطينية، وقيل إنه ودعهم كوداع مسافر حيث قال: «سوزا[2] سورية» أي وداعاً يا سورية، وأطلق العنان لجيشه فنهب وسلب القرى والمدن وكأنما هي منطقة الأعداء، فاغتصبوا ونهبوا كل ما وجدوه، ودمروا تلك المناطق أكثر مما فعله المسلمون، وتركوها بيد المسلمين ليسيطروا عليها. ووجه هرقل رسائل إلى الروم الموجودين في بين النهرين ومصر وأرمينيا، حذرهم فيها من مقاومة المسلمين. ودعا من يستطيع الحفاظ على حاميته، إلى أن يصمد في مكانه[3].

فتح مصر

لدى دخول عمرو [ابن العاص] قائد المسلمين مصر، استقبله قورا أسقف الإسكندرية وعرض عليه دفع مبلغ مئتي ألف دينار سنوياً، لقاء عدم دخول المسلمين مصر، فوافق وعاد، غير أن بعضهم رفعوا شكوى إلى هرقل ضد الأسقف على اعتبار أنه يعطي أموال مصر للعرب دون أن يكون هناك إكراه. وحيث أن تفكير الروم كان قد سقم، لذا كتب هرقل إلى قورا أن يرفع يده عن الإدارة في مصر.

---

(1) ت خ، ج3 ص 318.

(2) سوزا باليونانية تعني بالضبط إلى اللقاء أي لنا عودة.

(3) ت خ، ج3 ص 318- 319 .



وأرسل شخصاً أرمنياً يدعى مانوئيل ليدير شؤون مصر. فلما جاء وفد المسلمين لاستلام المال، وجدوا مانوئيل مع جيش الروم في باسلونه التي تعرف اليوم بالفسطاط، فأعادهم فارغين قائلاً: أنا لست قوراً، فذاك لم يرتد سلاحاً بل قميصاً، لذا سلم إليكم مصر. أما أنا فمتقلد سلاحاً كما ترون، فعاد الوفد وأخبر عمرو فدخل حينذاك مصر وهزم مانوئيل وهرب إلى الإسكندرية صحبة القلة الذين نجوا، فسيطر المسلمون على مصر. فكتب هرقل إلى الأسقف ليخرج المسلمين من مصر إن أمكن بإعطائهم أضعاف ما اشترط معهم سابقاً من المال. فجاء قورا إلى معسكر المسلمين، وبرر ساحته أمام عمرو، والتمس منه قبول المال. فأجاب عمرو: لا أنفذ رغبتك، فطالما سيطرنا على البلاد، فلن نتركها بعد. وبهذا يكون عمر قد طرد قورا فعاد كئيباً[1].

(1) ت خ، ج3 ص 319 .




مكتبة
الفكر الجديد

وصول عمر إلى القدس

في نهاية سنة 948 يونانية وهي السنة الـ26 لهرقل والـ 15 للهجرة، وصل الخليفة عمر إلى فلسطين فاستقبله صفرونيوس أسقف القدس وتحدث إليه عن البلاد، فكتب له عهداً على أن لا يسكن يهودي في القدس. فلما دخل عمر القدس، أمر ببناء مسجد في موقع الهيكل. وإذ رأى صفرونيوس ثياباً رثة على عمر، عرض عليه ثياباً ومئزراً، والتمس منه قبولها فأبى، لأنه اعتاد على أن لا يأخذ شيئاً من أحد وكان يقول: (لا ينبغي على المرء أن يأخذ شيئاً من آخر لم يعطه الله إياه، لأن الله يعطي لكل إنسان ما يريده، وإذا طمع بما عند رفيقه يكون قد تصرف ضد مشيئة الله).

وكان عمر بن الخطاب موضع الثناء في مثل هذه التصرفات. فالمسلمون يروون عنه الكثير من هذا القبيل. والحق يقال: إنه كان عادلاً وغير جشع، بحيث أنه لم يأخذ شيئاً لنفسه مما غنم من أموال وكنوز الفرس والروم بعد السيطرة عليهم، حتى ولا ما يغير به بساطة ثيابه. وكان يضع عباءته تحته لدى ركوبه الجمل. وإذا ما جلس أو نام كانت الأرض مقعده وسريره. ولما ألح عليه الأسقف، أجاب: حيث أنك التمست مني، ونظراً إلى كرامتك لدي، فسوف أستعير الثياب التي جلبتها لألبسها ريثما تغسل ثيابي، وسأعيد إليك ثيابك لدى إعادة ثيابي. وهكذا فعل[1].

---

(1) ت خ، ج3 ص 320.



[فتوح الجزيرة]

ومن فلسطين اجتاز المسلمون إلى المدن السورية واحتلوها. والتقى ايوانيس [يوحنا الرصافي] قائد جيش الروم بالمسلمين في قنسرين، وتم الاتفاق معهم على أن يدفع سنوياً مئة ألف درهم شريطة أن لا يعبروا الفرات نحو الشرق، ولا يدخلوا بين النهرين، وسلم إليهم جزية سنة واحدة. فلما سمع هرقل السخيف غضب على ايوانيس ونفاه، ولأن الله نبذ مملكة الروم، فقد انتهى هرقل إلى التفكير الأعمى الذي به كان يدير شؤون الدولة.

وفي سنة 951 يونانية، والـ 27 لهرقل والـ 18 للهجرة، والـ 6 لعمر، اجتاز المسلمون الفرات بسبب عدم دفع الجزية، فخرج الروم وأخذوا تعهداً لمدينتهم، وغادر جيش الروم كافة المدن بحسرة. أما تللاً[1] ودارا[2] فلم توافقا على الاستسلام للمسلمين، لذا احتلوهما حرباً وقتلوا جميع من فيهما من الروم.

وبعد أن سيطروا على بلاد ما بين النهرين بقيادة [عياض] ابن غنم عادوا إلى سورية، وأمر عمر بفرض الجزية على كافة البلدان التي احتلها. ففرضت الجزية على المسيحيين سنة 951 يونانية.

وفي سنة 952 يونانية، والـ 19 للهجرة والـ 7 لعمر، مات هرقل، بعد حكم دام 30 سنة وخمسة أشهر، فخلفه ابنه قسطنطين، ثم هرقل الصغير الملقب داود الجديد. وقد سببت مرطينة زوجة هرقل، عمى لقسطنطين، وأقامت ابنها هرقل الصغير ملكاً، فاستاء المستشارون من هذا العمل، فخلعوه ونصبوا قسطس بن قسطنطين[3].

---

(1) من مدن الجزيرة تقع في تركيا الحالية.
(2) مدينة من مدن الجزيرة بنيت أيام الاسكندر الكبير تخليداً لنصره على دارا الفارسي.
(3) ت خ، ج3 ص 321.



القدس بعد الفتح

تفشى في هذه الفترة وباء الطاعون فمات عدد كبير في سورية وما بين النهرين[1]، وفيما كان المسلمون يبنون المسجد في القدس مكان الهيكل[2]، سقط البناء. فقال اليهود، إن لم تنزلوا الصليب المرفوع فوق جبل الزيتون قبالة الهيكل، لن يبنى المسجد. ولما أنزلوا الصليب ثبت البناء. وبهذه الحجة أنزلوا صلباناً كثيرين، وسادت منذئذ في دولة المسلمين الكراهية للصليب، وأخذوا يضطهدون المسيحيين لإكرامهم الصليب.. في هذه الفترة، وفي الساعة الثالثة من يوم 29 تشرين الأول، كسفت الشمس فظهرت النجوم، فخاف الذين شاهدوا هذه الآية الرهيبة..

أمر عمر خليفة المسلمين بعدم ظهور الصلبان في الأعياد أو خلال التشييع فسر اليهود لهذا القرار، وأنزلوا الصلبان من الكنائس. وذات يوم رأى شخص مسيحي مقرب من الأمير يهودياً يصعد فوق كنيسة يوحنا المعمدان ليقلع الصليب، فاتقد غيرة ودخل إلى عمر وقال له: أيها الأمير العادل، ليس من العدل أن تفسح المجال لليهود أن يسخروا من أسرار ديننا. فغير الله قلبه، فقال: أنا لم آمر بقلع الصلبان باستثناء تلك المثبتة على الحيطان في الشوارع، فأوعز إلى أحد

---

(1) هذا ما سمي في المصادر العربية طاعون عمواس.

(2) إشارة مهمة إلى أن البدء ببناء المسجد الأقصى تم بعد فتح بيت المقدس مباشرة.



الحضور وصعد إلى تلك الكنيسة والتقى باليهودي وهو حامل الصليب ونازل، فاختطف منه الصليب وضربه على رأسه فانفجر دماغه ومات، وارتاح المسيحيون، وخاب اليهود، وألغي الأمر. وباشر المسيحيون يخرجون الصلبان أثناء الصلوات والاحتفالات والتشييع. غير أن أهل حمص ودمشق، لم يأبهوا أصلاً لأمر الأمير.

لقد سيطر عمر خليفة المسلمين على الروم والفرس في أعقاب الانتصارات التي حققها عليهم، فهرب ملك الفرس واختفى في بلاد الأتراك. وترك هرقل كل المقاطعات وهرب إلى العاصمة حيث حل أجله، فخلفه قسطنطين الذي أعمت بصره زوجة أبيه فمات، فملك قسطس فقتل عميه ووالدتهم. أما عمر خليفة المسلمين فقتل بعد أن حكم 12 سنة[1].

الخليفة عثمان

سنة 961 أرسل عثمان ابنه سعيد[2] لمطاردة يزدجرد ملك الفرس فاختفى في سجستان مدة خمس سنوات، ثم جاء إلى الكوفة. أما سعيد فبعد أن احتل كل المناطق جاء إلى مرو، فخاف يزدجرد أن يسلم إليه فاختبأ في رحى، فقتله أحد الأتراك هناك وأخذ رأسه إلى مرزبان المدينة الذي إذ رأى أن ملكه قتل، سلم المدينة للمسلمين، فأرسلوا تاج الفرس إلى عثمان فأرسله بدوره إلى مكة، ولا يزال هناك[3].

---

(1) استمرت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام.

(2) ذكر أصحاب الفتوح أنه عبر نهر بلخ وحاصر بخارى ونزل على سمرقند وبلاد ما وراء النهر.

(3) ت خ، ج3 ص 326.



فتح قيصرية فلسطين

لقد دمر المسلمون قيصرية فلسطين، فصح أن تقال في جمالها وكنوزها، المراثي التي قيلت في أورشليم، لأن حكامها لم يعرفوا الرب، ولم يفهم الشيوخ القضاء. فامتلأت شوارعها وأزقتها إثماً، ودنس الشباب والشابات ببعضهم البعض، ووصل صراخ المظلومين إلى مسامع الرب، فسلط عليها غضب المسلمين. فجاء معاوية وحاصرها براً وبحراً، وشن عليها حرباً، بدءاً من كانون الأول حتى أيار دون انقطاع ليلاً نهار، ولم يحصلوا على تعهد للإبقاء على حياتهم فلم يهدأ 72 منجنيقاً من قذف الحجارة، غير أن السور لم يثلم لمتانته، وأخيراً فتحوا فجوة فدخل بعضهم منها، وتسلق البعض الآخر السور بالسلالم، فقتلوا وقتل منهم مدة ثلاثة أيام، وأخيراً انتصر المسلمون، وهرب السبعة آلاف رومي الذين كانوا يحرسون السور بالسفن، فغنم معاوية مالاً وفيراً، وفرض جزية على سكانها.. فاجتاز في قيليقيا وأعمل فيها نهباً وسلباً. ثم اتجهوا إلى اونيطا وباغتوا أهلها باحتلال أبوابها، وأمر معاوية بقتلهم ووضع حراساً كي لا ينجو أحد. وبعد أن جمعوا ثروتها أخذوا يستنطقون الزعماء ليدلوهم على كنوزها الدفينة، وسبوا جميع أهلها رجالاً ونساء وفتياناً وفتيات واستعبدوهم.. ثم عادوا إلى بلادهم فرحين. وقعت هذه الأحداث سنة 951 يونانية [640 م][1].

---

(1) ت خ، ج3 ص 327.



ترجمة الإنجيل إلى العربية:

في هذه الفترة، عقد مرطوريوس أسقف رومية مجمعاً في رومية حضره 109 أساقفة، حرم فيه الملك هرقل وسرجي وقورس وبولس، وكل من لا يعترف بطبيعتين وفعلين وإرادتين وصورتين للمسيح، بحسب معتقد لاون.. في هذه الفترة، منع عمير بن سعد أمير المسلمين[1] وجود صلبان خارج الكنائس، وأمر بمحو صورها من الحيطان. وأن عمرو هذا هو الذي استدعى بطريركنا يوحنا. فلما دخل إليه بدأ يتفوه بكلمات غريبة عن روح الكتب، ووجه إليه أسئلة، فأجاب البطريرك على جميعها استناداً إلى العهدين القديم والجديد، ومن براهين طبيعية. فاندهش عمير من شجاعته وغزارة علمه، ثم طلب إليه أن يترجم الإنجيل إلى اللغة العربية، شريطة أن يحذف منه، كل ما يدل على أن المسيح ابن الله، وكلمة المعمودية والصليب. فاستعان الطوباوي بالله وقال: حاشاي أن احذف حرفاً واحداً أو سطراً

---

(1) هو عمير بن سعد الأنصاري الأوسي الزاهد نسيج وحده له حديث واحد روى عنه أبو طلحة الخولاني وراشد بن سعد وحبيب بن عبيد شهد فتح الشام وولي دمشق وحمص لعمر.. وقال عبد الصمد بن سعيد كانت ولايته حمص بعد ابن حذيم ابن لهيعة عن يونس عن الزهري قال توفي سعيد بن عامر وقام مكانه عمير بن سعد فكان على الشام هو ومعاوية حتى قتل عمر وعن ابن شهاب قال ثم جمع عثمان الشام لمعاوية ونزع عميرا وروى عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن عمير بن سعد قال لي ابن عمر ما كان من المسلمين رجل من الصحابة أفضل من أبيك وروى هشام بن حسان عن ابن سيرين قال كان عمر من عجبه بعمير بن سعد يسميه نسيج وحده وبعثه مرة على جيش قال المفضل الغلابي زهاد الأنصار ثلاثة أبو الدرداء وشداد بن أوس وعمير بن سعد استوفى ابن عساكر أخباره رضي الله عنه. [سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي].



من الإنجيل، حتى ولئن اخترقتني كل نبال وسهام جيشك. وتجاه هذا الصمود، سمح له أن يفعل ما يشاء. فجمع الأساقفة واستدعى جماعة من التنوخيين والكوفيين (والطائيين) الفقهاء باللغتين العربية والسريانية، وأمرهم بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية وعرض ما يترجمونه على المفسرين. وهكذا عرب الإنجيل وقدم للأمير[1].

(1) ت خ، ج3 ص 328.





مكتبة
الفكر الجديد

فتوح إفريقيا وقبرص

في سنة 958 يونانية، والـ 25 هجرية، والـ 5 لقسطس، تمرد غريغوريوس بطريق إفريقيا [تونس] على قسطس وفي تلك السنة دخل المسلمون إفريقيا وحاربوا البطريق فقتل عدد كبير من جيشه، ثم رجع المسلمون وسيطروا على كافة مدن الساحل.

أما غريغوريوس فقدم خضوعه للملك..

لقد قسم معاوية قائد المسلمين جيشه إلى معسكرين، وعين حبيب السرياني الشرير قائداً لأحدهما، وأرسله في تشرين إلى أرمينيا. فلما بلغوها وجدوها مغطاة بالثلوج، فأتوا بثيران وسيروها أمامهم فمهدت لهم الطريق فدخلوها دون أن يحولهم عنها الثلج، أو يشعر بهم السكان إذ لم يخطر ذلك على بالهم. فحارب المسلمون وغنموا وأسروا عدداً كبيراً وأحرقوا القرى وعادوا إلى موطنهم فرحين، أما الجيش الذي يقوده معاوية فجاء إلى قيصرية قبادوقيا، وعبروا الحواجز ووجدوا قرى مكتظة بالناس والحيوانات فغنموها، ثم حاصر معاوية المدينة وقاتلها مدة عشرة أيام، وأخيراً دمر الولاية برمتها وتركوا المدينة معزولة وعادوا. ثم أعادوا الكرة إليها بعد عدة أيام وحاربوها. وإذا رأى القيصريون أن لا مناص من الغضب الآتي، استسلموا وطلبوا الإبقاء على حياتهم، فخرج الزعماء ووقعوا تعهداً بدفع الجزية، فدخل المسلمون، ورأوا جمال أبنية الكنائس والأديرة والمال الوفير، فندموا لإعطائهم تعهداً، لكنهم لم يتراجعوا عن



قسمهم، فأخذوا ما أرادوا واتجهوا إلى منطقة أمورين [عمورية]، وإذ رأوها بجمال الفردوس، لم يلحقوا بها أذى، بل داروا حول المدينة، ورأوا من الصعوبة احتلالها، فأعطوا ذهباً ومالاً وفيراً كالتراب، ثم عادوا إلى بلادهم[1].

فتح قبرص

وفي سنة 960 يونانية [649 م]، جمع معاوية آلاف الجنود، وجلب من الإسكندرية مع جيش 1700 سفينة عليها رجال مسلحون. ولدى وصولهم إلى قبرص أمر معاوية بضم الأرمن وأوقف السفن في البحر، وأعطى الأمان لأهل الجزيرة، لكنهم لم يرضوا، فانزعج منهم الاسكندريون لعدم سماحهم لهم بالدخول، فربطوا السفن ودخلوها مسلحين، وشرعوا يخربون وينهبون.

احتلال قسطنطينية قبرص

ثم اتجهوا نحو القسطنطينية[2] أم البلاد وكانت مكتظة بالسكان فاحتلوها بقوة السلاح، وحل (معاوية) في دار الأسقفية... وقد سمح الله بتدنيس تلك الكنيسة لأن الكهنة كانوا قد غيروا إيمان القديس أبيفانوس الذي شيدت في عهده. وبعد أن جمعوا ذهب الجزيرة ومالا وعبيداً، قسموا الغنائم، فأخذ المصريون قسماً، وأخذوا هم القسم الآخر وقفلوا راجعين[3].

---

(1) ت خ، ج3 ص 338.

(2) كانت القسطنطينية عاصمة جزيرة قبرص في تلك الآونة، وقد سميت في العهد البيزنطي الكثير من المدن باسم القسطنطينية إحداها في حوران.

(3) ت خ، ج3 ص 339.



إعادة فتح قبرص

وإذ كان الله قد قضى بإبادة الجزيرة، حرك بعد فترة أبا الغور[1] وجيشه، فعادوا إلى قبرص ثانية لأنه سمع أن أناساً استوطنوها، ولدى وصوله ارتعب أولئك السكان، فدخل المسلمون وأخرجوا الناس من أنفاق تحت الأرض، ونهبوا الجزيرة كلها، ثم انتقلوا إلى مدينة بافوس[2] وشددوا عليها الخناق، فطلب سكانها الأمان، فاشترط أبو العور أن يعطي لهم الذهب والفضة والأموال متعهداً بعدم إيذاء أي منهم، ففتحوها وجمعوا ثرواتها وعادوا إلى سورية.

ثم حاول معاوية الدخول إلى جزيرة أرواد، فحاصرها لكنه فشل في احتلالها، فأبلغ أسقفها توما بترك المدينة والانصراف بسلام، لكنهم لم يرضخوا، فعاد معاوية لئلا يعاد بناؤها ثانية.

فتح جزيرة رودس

وفي سنة 965 يونانية، ركب أبو العور وجيشه البحر ووصلوا إلى جزيرة قو[3] [*Cos*] فاحتلها بخداعه أسقفها، فسبوا ونهبوا كل أملاكها

---

(1) المقصود أبو الأعور السلمي: والي جند الأردن في عهد معاوية بن أبي سفيان وقائد جيوشه في معركة صفين كما يذكر البلاذري في أنساب الأشراف في نسب بني سليم، وهو عمرو بن سفيان بن عبد شمس بن سعد الذكواني السلمي، مشهور بكنيته . نقل ابن حجر عن عباس الدوري أن يحيى بن معين قال : (أبو الأعور السلمي ، رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان مع معاوية) . وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: (إن أبا الأعور أدرك الجاهلية، ولا صحبة له ، وقد غزا قبرص سنة 26 ، وكانت له مواقف بصفين مع معاوية).

(2) بافوس هي أصغر المدن القبرصية الآن فيها محمية طبيعية وآثار عمرانية إغريقية ورومانية وبيزنطية كثيرة ولها ذكر في الملاحم الإغريقية

(3) قو (Cos) إحدى الجزر اليونانية الواقعة في شرق بحر إيجة ولد فيها الطبيب اليوناني الشهير أبقراط.



وقتلوا سكانها وأسروا البقية ودكوا حصونها، ثم اجتازوا إلى كريت ونهبوها، وذهبوا إلى رودس وخربوها، وحطموا التمثال النحاسي العجيب الذي يعتبر من عجائب الدنيا وأخذوا رأسه. وكان نحاسه من قورنثية، وهو شبه إنسان واقف. فلما أضرموا النار تحته، وجدوا أنه مغروس في الأرض بقضبان حديدية ضخمة متغلغلة بين الصخور، فتعاون عدد من الرجال على سحبه بالحبال، وللحال اقتلع وسقط على الأرض. كان طوله 107 أقدام، ونحاسه ثلاثة أطنان، وكان رجل يهودي قد اشترى النحاس من مدينة حمص[1].

في هذه الأثناء، تحالف رجل أرمني يدعى داود من العاصمة، مع منطينا الغربي، واتفقا على أن يلتقيا في مكان ما لمقاتلة المسلمين. فعلم المسلمون، فذهبوا وقتلوا منطيناً أما داود فوصل إلى بين النهرين، ولم يكن هناك مسلمون، فأخذ جنده يرتكبون المساوئ والشرور، فوصلوا إلى قرية بيت معد فنهبوا الذهب والفضة والأموال والخبز والخمر واللحم، وضربوا المسيحيين، ورموا رملاً ورماداً في أنوفهم ليدلوهم على الكنوز المخفية تحت الأرض. ولم يكن يسمع شيء سوى صوت البكاء والعويل لا سيما من النساء المحصنات اللواتي كن يغتصبن أمام أزواجهن. فلما رأى طيطو وجنده ما يقترفه الروم دون رادع، قال لداود: ليس جديراً بك وأنت مسيحي أن تشهر رمحك على المسيحيين، فإن الملك سوف لن يكافئك. فأشار إليه أن ينقذ الذين أسرهم الأرمن، فأنقذ طيطو بذلك عدداً كبيراً. ولما طرقت

(1) تشير المصادر الإغريقية إلى أن هذا التمثال البرونزي بني عام 280 ق. م وسقط عام 227 ق. م نتيجة زلزال مدمر. وكان يمثل الإله الإغريقي أبولو أو هيليوس إله الشمس بحسب بعض المصادر، ويبدو أن المسلمين قد وجدوا قطع هذا التمثال مبعثرة في المكان فنقلوها معهم ولم يقوموا هم بتدميره.



أخبار داود مسامع عيص [عياض بن غنم] في دمشق، ألب جيشاً وجاء إلى الرها، فارتعب الأرمن وتركوا معسكرهم بما فيه وهربوا، فطاردهم العرب بسرعة فائقة ولحقوا بهم أفواجاً أفواجاً، فعاد داود وأمر باستئناف القتال مع المسلمين. أما طيطو والذين معه، فشكلوا جبهة واحدة، وحاول جيش المسلمين القبض عليه، وإذ وجدوا معه رجالاً أشداء تركوه، ووجهوا أنظارهم إلى داود وجيشه، فنادى داود التعيس طيطو وقال: هوذا الوقت الذي تظهر فيه محبتك للروم. فأجاب: إذا ساعدتك فسوف لن يؤازرني الرب - إلى مثل هذا الغضب كانت تثير تنهدات الفقراء وتدنيس النساء - فقتل داود ومعظم الذين معه، لأن المسلمين طاردوه لوحده، أما طيطو فهرب إلى آمد[1].

الحملة على القسطنطينية

وفي سنة 966 يونانية، والـ 35 هجرية، والـ 10 لقسطس والـ9 لعثمان، جهز معاوية آلافاً ليبحروا إلى القسطنطينية العاصمة، والسبب: أن شخصين غيورين أطلقا سراح الأسرى المسجونين في طرابلس حيث كانت تصنع السفن وقتلا قائد جيش المسلمين، وأحرقا معدات السفن وهربا بالقوارب إلى منطقة الروم: فاستشاط معاوية قائد قوات المسلمين، غضباً لدى سماعه بما حدث، وعبأ جيشاً أكثر من الأول وهيأ سفناً، وقاد أبو العور الحملة، فوصلوا إلى قيليقيا حيث التقوا بالملك قسطس وأخيه ثاودوس، وفيما كانوا يخططون للهجوم على المسلمين في اليوم التالي، نام الملك ورأى في حلمه أنه في تسالونيقي، فقصه على مفسر الأحلام، فقال له: ليتك لم تنم أيها الملك ولا ترى هذا الحلم، فإن معنى تسالونيقي هو: تاس، لوطين، نيقي، أي أن النصر هو للآخرين، ومعنى هذا أن النصر

---

(1) ت خ، ج3 ص 340.



سيحالف أعداءك. فهزأ الملك من هذا التأويل وأعد سفنه للحرب في البحر، لكن المسلمين انتصروا وخذل الروم، وأوشك أن يقبض على الملك، لولا أن دخل ابن بوقنطر وقفز إلى سفينة الملك ونقله إلى سفينة أخرى، وبقي هو في السفينة الملكية. وبعد أن قتل الكثيرين قتل هو الآخر، واشتدت المعركة حتى قيل أن رمل اليابسة تصاعد أكثر من الأبخرة بين السفن. وعلى أثر اندحار الروم وهروب الملك قسطس وأخوه إلى العاصمة، هدأ القتال، وأمر أبو العور قائد المسلمين أن تجمع الجثث الطافية على الماء كالقفف، فبلغ عددها نحو عشرين ألفاً. وإذا تأهب المسلمون للتوجه إلى القسطنطينية، التقاهم فطولومس وتعهد بدفع الجزية سنوياً عن بلاد الروم. وإذ أخل بوعده صعد المسلمون وسبوا إيسورا، فدفع فطولومس المال، وعقد صلحاً مع المسلمين لثلاث سنوات، وأرسل الملك ابن أخيه غريغوريوس رهينة إلى معاوية مقابل الذهب.

غير أن المسلمين لم يبقوا على تعهدهم متشبهين بالروم الذين لا يخلون العهد مع المسلمين فحسب، بل حتى مع بعضهم البعض مثل قسطس، الذي قتل أخاه ثاودوس لكي تبقى الخلافة لأولاده، فكرهه جيشه لأنه تصرف بدون رحمة. وإذ علم بهذا ذهب إلى رومية وتأخر، فثار الجيش وقالوا: لا يجدر بالملك أن يكون في رومية في منأى من المسلمين. فجاء إلى جزيرة صقليا، وفضل الإقامة في سرقوسا وأرسل بطلب أولاده، فرفض أهل المدينة وقالوا: لا ندع ملوكنا يتركوننا. فعين أولاده الثلاثة: قسطنطين وطيبريوس وهرقل، وكلاء له، وأقامهم في العاصمة، وأمضى هو في سراقوسا بقية حياته، لأنه كان يخاف لئلا يقتله قواده كما قتل هو أخاه دون ذنب، وقد شبههما الناس بقايين وهابيل[1].

---

(1) ت خ، ج3 ص 342.



معاوية وأرمينية

سنة 976 يونانية، والـ45 هجرية والـ 24 لقسطس والـ 6 لمعاوية، تمرد على على قسطس قائد جيش الأرمن يدعى شابور، ويسمونه افريستكين. فأرسل إلى معاوية شخصاً يدعى سرجي، بطلب مؤازرته لقاء تسليم أرمينيا له. فلما علم بذلك قسطنطين ابن الملك وهو في العاصمة، أرسل إلى معاوية رجلاً تافهاً يعمل (مراسلاً) يدعى أندريا الشهير بشجاعته. فأمر معاوية بإدخال سرجي إليه أولا ليتآمر على قسطس. أما

أندريا فامتطى دابة عمياء وأوشك أن يدخل إلى معاوية ليحذره من أن ينخدع بذلك المتمرد. فلما سمع............... غادر سرجي المدينة، لأنه لم يكن راغباً في دخوله، ولكن لما استوجب الأمر دخوله، أمر أن يدخل سرجي أولاً ومن ثم أندريا، فدخل سرجي وجلس، ثم دخل أندريا، فارتعب سرجي وأسرع وانحنى أمامه. فاغتاظ معاوية من سرجي فقال له: ما الذي حدث لك، أيها الجبان القليل العقل؟ فإذا كان هذا، وهو عبد، قد أفزعك بهذا المقدار حتى قمت وانحنيت أمامه، ترى ماذا كنت تفعل لو رأيت الذي أرسله؟ أجاب سرجي: لقد خدعتني العادة المتبعة، ولم أفعل ذلك خوفاً. ثم التفت نحو أندريا وقال: ما الذي تريده؟ أجاب: لقد أرسلني الملك لأسألك أن تطرد هذا الجالس أمامك. فقال معاوية: كلكم أعداؤنا، لكننا نساعد الذي يتفق معنا ويزيد في جزيته لنا. فقال أندريا: حقاً إنهم أعداؤكم سواء الملك أم الذي تمرد عليه، ولكن هناك عدواً يفضل على عدو، كما يفضل صديق على صديق، فليس السيد والعبد على مستوى واحد، لأن السيد يقوم بالعمل من منطلق كونه حراً وجديراً. أما الذي يعيش تحت وطأة العبودية، فإنه ينفذ الأمور



العظيمة بتواضع وذلك من منطلق كونه عبداً. فإن كان ملكي قد تعهد تحت أية شروط كانت، ولئن كان أقل مما تعهد به هذا الطاغية، فعليك أن تصدقه ولا تميل إلى من يغش. وإذا أقسم الطاغية بأنه يستطيع، عن طريق التعهد، أن يستميلك إليه. فاعلم أنه كاذب. فإذا كان قد أساء بهذا المقدار إلى سيده الذي أنعم عليه، فكيف يثق بوعدك وأنت لم تقم ولم تنحن له. فقال له أندريا: يا لخيبة أملك، لماذا لم تقم أمامي، فسخر منه سرجي، وكلمه بنبرة نسائية، فهدد أندريا أن يقطع خصى سرجي. فقال معاوية لأندريا: إن كنتم لا تدفعون الجزية، فإن بلادكم ستكون لنا ولا يبقى لكم سوى الاسم، فأحذروا. فقال أندريا: يبدو أن المسلمين قرروا أن يكونوا الجسم ونحن الظل، لكن لنا رجاء بالله.

ثم خرج واتجه نحو ملطية، وأمر حراس الحواجز أن يقبضوا على سرجي عندما يحاول الاجتياز، ووعده معاوية بإرسال جيش معه، لكن الكمين قبض عليه وقادوه إلى أندريا، فقال له: أأنت سرجي الذي هزأ بي أمام معاوية؟ فأمر باستئصال خصيتيه ووضعهما في يده ثم شنقوه. أما معاوية فأرسل قوة إلى سرجي بحسب وعده، وقبل وصول الجيش، حدث أن الحصان الذي كان يمتطيه شابور ضايقه فسقط ومات. وإذا علم المسلمون بهذا، نهبوا المنطقة الرومانية حتى خلقيدونية، وعادوا[1].

---

(1) ت خ، ج3 ص 346.



تـحليل

يهدف هذا القسم من الكتاب إلى تحليل مضمون الرواية السريانية للفتوحات الإسلامية المبكرة، ومحاولة الوقوف على زاوية الرؤية التي نظر من خلالها الرواة السريان إلى الأحداث، وعلى الميول التي حكمت رؤيتهم ومدى تأثرها بالروايات الأخرى.

موقع الراوي

لقد اتخذ الراوي السرياني، وخصوصاً في الفتوحات المبكرة العمرية، موقعاً مراقباً من داخل الحالة البيزنطية، بمعنى أن زاوية الرؤية التي نظر من خلالها صاحب الرواية السريانية إلى الأحداث هي من داخل المعسكر البيزنطي. ومعلوم أن المعسكر البيزنطي المقصود في حديثنا هو تجمع عريض لمختلف القوميات التي شكلت الإمبراطورية البيزنطية، من لاتين ويونان وسريان وعرب وأرمن.

لقد توفر للسريان في هذه الفترة مؤرخ كان والده يحتل موقعاً بارزاً في قيادة الجيوش البيزنطية، وهو سرجي بن إيوانيس [يوحنا] الرصافي، وهذا المؤرخ الذي اطلع على بعض الوقائع المهمة المتعلقة بالحروب الفارسية الرومية التي سبقت الفتوحات الإسلامية، ثم الوقائع المتعلقة بالفتوحات الإسلامية، هو الذي أشار المؤرخ ديونيسيوس التلمحري إلى اعتماده كمصدر في نقل أخبار تلك المرحلة. ومما لاشك فيه أن هذا المؤرخ قد توفرت له مصادر مهمة عن سير المعارك على الجبهة الفارسية، وفي الجزيرة الفراتية أكثر مما



هو عليه الأمر بالنسبة لمعارك الشام، والتي ربما استقى أخبارها من جنود سريان شاركوا في القوات البيزنطية التي حاولت الدفاع عن سوريا من زحف القوات الإسلامية.

إن الإشارة التي ترد حول ضابط سرياني شارك في معركة أجنادين في عداد جيش ثاودريقي شقيق هرقل لهي دليل على أن السريان كانوا يحتلون مواقع مهمة في القوات البيزنطية، ولذلك فقد اعتمدت الرواية السريانية لسير المعارك على نتف كثيرة من هذه الروايات.

ولذلك كان الراوي السرياني يعرف أسماء القادة على الجبهة البيزنطية، وأقسام الجيوش ومواعيد تحركها، وانتماءات القادة القومية، في حين أن المعسكر الإسلامي في الفترة المبكرة (العمرية)، بقي غامضاً بالنسبة له، ولم يقدم أي رواية من الزاوية الإسلامية، باستثناء الخبر عن إرسال أبي بكر الصديق أربعة جيوش لنشر الدعوة وفتح البلاد المجاورة، وهو خبر لابد أنه انتشر وعم ووصل إلى الرواية السريانية بوساطة انتقال الشائعات.

لم تقدم الرواية السريانية أي تفاصيل تتعلق بأسماء القادة المسلمين، وإن حدث وذُكر اسم قائد فإنه لا يذكر بشكل صحيح، وهذا مفهوم إلى حد ما نظراً لأن مصادر الأخبار عن المعسكر الإسلامي كانت شحيحة جداً، إن لم تكن معدومة في فترة الفتوحات المبكرة، في حين أن هذا الأمر تغير في فترة خلافة عثمان بن عفان، وتولي معاوية بن أبي سفيان مقاليد الحكم في بلاد الشام، ودخول السريان في عداد جيوشه، ولذلك توفرت مصادر مهمة من داخل المعسكر الإسلامي الذي كان يقوده معاوية، إن كان براً أو بحراً، ولذلك قدمت الرواية السريانية تفاصيل مهمة عن سير المعارك تحت قيادة معاوية، انفردت برواية الكثير من الأخبار التي لا ترد في أي مصادر أخرى، وهي أخبار سنأتي عليها بالتفصيل في الفقرات اللاحقة.



هذا ما يتعلق بأسماء القادة المسلمين، أما أسماء المواقع الجغرافية في جنوب سورية، فالأمر يتخذ منحى لافتاً للنظر، على صعيد الخلط والتحوير، والسبب كما أسلفنا عائد إلى أن الرواة أو ناقلي الروايات يتتمون إلى مناطق جغرافية بعيدة نسبياً عن جنوب سورية، الذي كان ذا هوية عربية خالصة منذ فترة طويلة، وعلى سبيل المثال فعند الحديث عن معركة داثن وهي المعركة الأولى في الفتوحات الإسلامية، يخلط الراوي السرياني بين موقع المعركة الذي هو في جنوب فلسطين وبين موقع قيصرية فلسطين التي تقع في الشمال، لأن القائد الذي قاد المعركة أتى من قيصرية فلسطين، فاعتقد الراوي السرياني أن المعركة جرت في قيصرية نفسها أو بالقرب منها، مع أنه لم يتحدث عن فتح المسلمين لهذه المدينة. والأمر نفسه يقال عن معركة الجابية- اليرموك، إذ خلط الراوي بين بصرى والجابية على اعتبار أن بصرى كانت عاصمة الولاية العربية أيام الرومان، والجابية كانت عاصمة العرب الغساسنة، فقال إن المعركة وقعت في بصرى التي تسمى الجابية قرب نهر اليرموك، ولذلك فإننا نجد أن بصرى مقحمة هنا إقحاماً على اعتبار أن بصرى هي عاصمة الولاية من الناحية النظرية، في حين كانت الجابية هي العاصمة الفعلية للحكام العرب.

كما أن خلطاً وقع بالنسبة لوصول الخليفة عمر بن الخطاب إلى الجابية بعد معركة اليرموك، وبدا وكأنه وصل إلى حمص، في حين يتبين لنا أن من كان في حمص فعلاً هو القائد الفارسي نيكيتاس ابن القائد المعروف شهربرز، والذي نجح في الفرار من الجابية بعد مقتل وكيل الملك ثيودور تريثيوس والقائد بانيس [باهان] وحاول وضع نفسه في خدمة المسلمين كما سبق وفعل بالنسبة للبيزنطيين. وهذا الخلط، الذي نرجح بأنه ناتج عن سوء النسخ، يتكرر أيضاً بالنسبة للقادة الذي تجمعوا للمشاركة في معركة اليرموك، فللوهلة الأولى نظن أن المعركة وقعت في حمص، غير أن الحديث عن غرق الجيش



في نهر اليرموك يعيد الصورة إلى منطقيتها، ولذلك لابد من التيقظ عند الحديث عن المواقع الجغرافية التي جرت فيها معارك جنوب سورية، ولابد من إعمال العقل وإجراء المقارنة مع المصادر الأخرى للوصول إلى حلول منطقية ومعقولة لبعض الأسئلة المعلقة في الرواية السريانية.

الميول:

على الرغم من مشاركة السريان في جيوش البيزنطيين، قادة وضباطاً وجنوداً، إلاّ أن الموقف السرياني العام كان معادياً للسلطة البيزنطية، والسبب في ذلك الخلاف الديني الناشئ بعد مجمع خلقيدونية، وما يتعلق بطبيعة السيد المسيح.

لقد حدث الانقسام الكبير في الكنيسة المسيحية عندما عقد المجمع الخلقيدوني في المدينة التي سمي باسمها (خلقيدونية) عام 451م بناء على دعوة الإمبراطور مرقيان، والإمبراطورة بولخاريا، بناءً على طلب لاون الروماني أسقف روما، الذي احتج على قرارات المجمع المسكوني الرابع أو مجمع أفسس الثاني المنعقد عام 449م، والذي قرر أن السيد المسيح بعد تجسده صار اتحاد اللاهوت والناسوت في طبيعة واحدة، وقد حاول لاون في عهد الإمبراطور ثاودوسيوس عقد مجمع لإلغاء قرارات أفسس الثاني، ولكنه فشل في ذلك، وقد أتت الفرصة بعد اعتلاء مرقيان العرش وارتدائه الأرجوان. وقرر مجمع خلقيدونية إلغاء قرارات مجمع أفسس الثاني واعتماد قانون إيمان جديد يقول إن السيد المسيح بعد تجسده كانت له طبيعتان: لاهوتية، وناسوتية[1].

---

(1) توجد مراجع كثيرة تحدثت عن هذا الانقسام بتفصيل منها كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى - الدكتور أسد رستم، الجزء الأول، ص 314 وتاريخ ميخائيل الكبير الجزء الأول من الصفحة 283 وحتى 379، وفيها استفاضة في الشرح وتفنيد أرثوذكسي لما نتج عن هذا المجمع.



وكان من نتيجة قرارات هذا المجمع انقسام الكنيسة إلى قسمين:

القسم الأول: يضم كنيسة روما والقسطنطينية، اللتين اعتنقتا المعتقد القائل بأن للمسيح طبيعتين، وفيما بعد مشيئتين، وقد سمي هؤلاء في أدبيات مخالفيهم بالملكيين، لأنهم اتبعوا الملك أو الإمبراطور.

والقسم الثاني: ويضم كنيسة الإسكندرية ومن اتبع خطاها مثل: السريان، والأقباط، والعرب، والأرمن الذين احتفظوا بإيمانهم الأرثوذكسي (القويم)، الذي اعتمده مجمع أفسس الثاني بشكل واضح، وهو أن طبيعة المسيح هي الطبيعة الواحدة، حيث سمي هؤلاء في أدبيات مخالفيهم بـ" المونوفيسيين"، لإلصاقهم بما سمي بدعة أوطاخي.

وكان من نتيجة ذلك انفصال كنيسة بيت المقدس عن إنطاكية واستقلالها بنفسها متبعة قانون الإيمان الخلقيدوني.

أما كنيسة أنطاكية نفسها فقد ظلت الأمور فيها متأرجحة بين أسقف خلقيدوني (ملكي) أو أرثوذكسي (مونوفيسي) حتى عام 518م، أي حين استولى جوستين الأول على عرش بيزنطة، حيث أقصى سويريوس بطريرك أنطاكية الأرثوذكسي عن منصبه هو والكثير من الأساقفة الأرثوذكسيين، وانتقل من أنطاكية إلى الإسكندرية بعد ست سنوات من جلوسه على الكرسي وتابع رعاية شؤون كنيسته من هناك، وعين بدلاً عنه بولس الثاني الخلقيدوني، ومنذ ذلك الوقت لإنطاكية أسقفين أحدهما خلقيدونياً (ملكياً) والآخر لاخلقيدوني (مونوفيسي).

ولذلك حاول جميع الأباطرة البيزنطيين تحويل السريان وغيرهم عن معتقداتهم وجعلهم يؤمنون بالمعتقد الخلقيدوني، دون فائدة فعم الاضطهاد بمختلف صوره، ولذلك بقي ولاء السريان للسلطة التي تضطهدهم موضع شك، فكانوا عوناً لأي قوة يمكن أن تخلصهم من



نير الاضطهاد الخلقيدوني، فتجدهم قد تعاطفوا مع الفرس عندما اجتاحوا أراضي الروم في أسيا الصغرى والجزيرة وسورية وفلسطين ومصر، غير أنهم عادوا واتخذوا موقفاً سلبياً من الفرس بعد أن وقع الاضطهاد عليهم من هؤلاء.

أما موقف السريان من المسلمين فقد تأرجح بين التأييد المطلق والقليل من التحفظ على بعض المواقف، وخصوصاً خلال فترة الفتوحات في أنطاكيا والجزيرة الفراتية وقيليقيا.

لقد استقبل السريان العرب المسلمين بوصفهم مخلصين من وطأة الاضطهاد اليوناني، ولذلك أطلقوا على الخليفة عمر بن الخطاب لقب فاروقو أي المخلص، وهو أحد ألقاب السيد المسيح، وعلى الرغم من أن المصادر الإسلامية تذكر بأن الرسول محمداً هو الذي أطلق هذا اللقب أي الفاروق على ابن الخطاب، إلا أن السريان تعاملوا معه باعتباره لقباً يخصهم. وقد وردت عبارات في متن النصوص التي تتحدث عن الفتوحات الإسلامية المبكرة تقول: (نشكر الله الذي خلصنا من حكم البيزنطيين الظالمين وجعلنا تحت حكم العرب المسلمين العادلين). وقد أشارت الروايات السريانية بكثرة إلى عدل العرب ورحمتهم، مقارنة مع ما كانت ترتكبه الشعوب الفاتحة الأخرى، ورويت قصص عديدة من هذا القبيل.

وكذلك الأمر عند حديثهم عن الخليفة عمر بن الخطاب وفتحه للقدس وتقشفه وامتداحهم لعدله.

غير أن هذه المدائح لسلوك المسلمين، لم تكن بمعزل عن التصور السرياني لطبيعة العقاب الإلهي الذي كان الله ينزله على الروم الظالمين والفرس المجوسيين، فالمسلمون هنا ظهروا وكأنهم الأدوات التي اتخذها الله لتنفيذ عقابه بهؤلاء القوم، إنهم (المسلمون)



صورة من الغضب الإلهي، ولـذلك اكتسـت القـصص التي للدارللسهم صبغة القدرية، وغلب على بعضها منطق الخوارق.

فالعرب المسلمون البسطاء القادمين من الـصحراء بسلاح خفيف ودون دروع، كـانوا يهزمـون الجيـوش المدججـة والقـادة المـدرعين والمسلحين بأحدث أسلحة تلـك الأزمنـة، بقـوة إلهيـة، فهـذا القائـد الفارسي المدجج والمدرع الفار من أمام جنـدي عـربي أعـزل إلا مـن سيفه، قال إن الجندي العربي المسلم كان يمنع والسهام والرماح بكـم عباءته، وهذا قائد معركة داثن البطريق سرجي استـسلم لمـصيره لأنـه أيقن أن ما حل به هو عقاب إلهي، وهذا ثاودريقي شـقيق هرقـل هـزم في أجنادين لأنه اعتمد على نبوءة راهب (دجـال خلقيـدوني)، وغـير ذلك من القصص التي تشير إلى سـيطرة مقولـه العقـاب الإلهـي علـى ميول ناقلي الرواية السريانية لأخبار الفتوح.

إن تحليلنا لموقع الـراوي الـسرياني وميولـه بـين أن روايتـه لأخبـار الفتوح الإسلامية أصـيلة، لم تتـأثر بالروايـات الأخـرى، سـواء منـها العربية الإسلامية أو البيزنطية اليونانية، بل ظلت تلك الرواية منـسجمة مع التصور السرياني الديني للعقـاب الإلهـي المحتـوم علـى محـوري عقيدة (الإيمان القويم). ولذلك ركزت الرواية السريانية على القـصص والأخبار التي تمثـل عـبرة لمـن يعتـبر مهمـا كانـت قيمتـها التاريخيـة ضئيلة، في حين كان هدف التوثيق التاريخي يأتي بالدرجة الثانية ومـن زاوية خدمة المقولة الدينية.




مكتبة
الفكر الجديد

تركيب

صورة هرقل

سنحاول الآن إعادة تركيب صور الإمبراطور البيزنطي هرقل عبر جمع شتاتها من مختلف تفاصيل الرواية السريانية للفتوح الإسلامية، ونطمح من خلال هذه المحاولة إلى توضيح بعض الأمور الغائمة والملتبسة المتعلقة بهذه الشخصية المحورية في هذه المرحلة، التي تحتل موقعاً مركزياً في روايات الفتوح من وجهة النظر السريانية.

إن أولِ ما يلفت النظر في تناول الرواية السريانية لشخصية هرقل تركيزها على أن وصول هذا الإمبراطور البيزنطي إلى سدة الحكم وارتدائه الأرجوان كان نتيجة الصدفة، حيث لعب الحظ دوراً في وصوله إلى العاصمة قبل قائد زميل له كان يفترض أن يصل هو الآخر للقضاء على الإمبراطور فوقا والجلوس مكانه.

ولنتأمل سلسلة المواقف المرتبطة بمسيرة هرقل إلى الحكم كما وردت في تاريخ التلمحري المنشور في تاريخ ميخائيل الكبير:

أولاً: التآمر، فهرقل تآمر على إمبراطوره فوقا وأسهم في قتله.

ثانياً: لعبة الحظ، فهرقل كان محظوظاً بمواتاة الرياح له.

ثالثاً: الفأل السيئ، ففي السنة التي ملك فيها حدث كسوف لمدة أربع ساعات، وانحبست الأمطار، وهلكت الزروع، واختفت الحبوب فحدثت مجاعة.



رابعاً: الخنوع، وقصة محاولة استرضاء الفرس عبر الزعم بأنه قتل فوقا إرضاء لهم.

خامساً: الخسارة، وأخبار احتلال الفرس عدة مناطق في السنة التي ملك فيها هرقل، ثم توالي الخسارات في الفترات اللاحقة مع الفرس والمسلمين من بعدهم.

سادساً: الغدر، حيث حنث باتفاقه مع غريغوريوس ولم يعينه قيصراً، بل عين ابنه قسطنطين قيصراً.

سابعاً: التفريط بالمقدسات، قصة أسر الفرس زكريا أسقف أورشليم الخلقيدوني وسرقة خشبة الصليب.

ثامناً: تبني انتصارات مزعومة على الفرس، في حين أن السبب كان انهيار الفرس من الداخل ونتيجة عوامل ذاتية لا دخل له بها.

تاسعاً: بيعه لابنته مقابل كسب تحالف سياسي.

عاشراً: اتخاذه قرارات عمياء تسببت بسرعة الانهيار البيزنطي.

حادي عشر: اتخاذه قرارات حمقاء بتخريب وسلب أنطاكية عند خروجه منها.

ثاني عشر: تعديه على الناموس، بزواجه من ابنة أخيه.

إن الصورة التي استطعنا تركيبها لهرقل من خلال المصادر السريانية، هي صورة سلبية بالمطلق، من جميع النواحي الشخصية والسياسية والعسكرية الإستراتيجية وحتى الأخلاقية.

والمفاجئ أن الرواية السريانية لسيرة هرقل تمتلك مصداقية أكبر من الروايات الأخرى حول هذه الشخصية الإشكالية، ففي حين حاولت الرواية البيزنطية المعاصرة له ولسلالته في الحكم، نزع تهمة إضاعة



معظم أراضي مملكته، وإلصاقها بالقادة الذين لم يلتزموا بتعليماته، نجد أن الرواية السريانية تفند هذه الادعاءات بسرد الوقائع عارية كما هي. أما الرواية البيزنطية التي حاولت تضخيم انتصاراته على الفرس واستعادة سورية ومصر والجزيرة منهم فإنها تتهاوى أمام الرواية السريانية شديدة الإقناع، والمثبتة بالوقائع والأسماء بتفصيل يكاد أن يكون أشبه بمرافعة اتهامية لنائب عام أمام هيئة المحكمة.

إن المقارنة بين الرواية الإسلامية والرواية السريانية بشأن هرقل فهي حتماً ستصب لصالح الأخيرة، نظراً لعدم امتلاك مؤرخي الفتوحات أي معلومات تفصيلية من داخل المعسكر البيزنطي، وعدم فهم آلية الحكم في الإمبراطورية البيزنطية، حيث يخلط مؤرخو الفتوح بين الملك والقيصر ويبدوان وكأنهما شيء واحد!.

وعليه تبدو الرواية السريانية هي الرواية الأقرب إلى حقيقة شخصية هرقل، لامتلاكها الكثير من الحجج والبراهين المقنعة التي لا تمتلكها الروايات الأخرى.

التسلسل التاريخي للفتوحات:

على الرغم من الثغرات الكبيرة في الرواية السريانية لسير الفتوحات الإسلامية المبكرة، والتي تحدثنا عنها ونقدناها في الأقسام السابقة، إلا أنها تحوي إلى حد كبير تسلسلاً منطقياً لبعض المحطات الكبرى في هذه الفتوحات، يمكن أن يشكل دليلاً لبعض الروايات الإسلامية التي تعاني من الاضطراب الشديد بشأن التسلسل الزمني، وذلك لابتعاد فترة التدوين عن فترة وقوع الأحداث، فتجد لدى المؤرخ نفسه روايتين متناقضتين زمنياً حول معركة واحدة، وهذه المشكلة تعاني منها جميع نصوص الفتوح العربية بما فيها نصوص البلاذري ذاته، والذي يعد حسب إجماع الباحثين أكثر رواة الفتوح مصداقية، على الأقل من خلال النصوص المتوفرة للباحثين.



وعليه فقد بات بالإمكان إعادة تركيب تسلسل زمني لسير الفتوحات من خلال الرواية السريانية نجمله بالنقاط التالية:

- قرار فتح بيت المقدس ومعه بلاد الشام برمتها قرار نبوي، وقد تحدث النص السرياني بصراحة ووضوح حول هذا الموضوع.

- إرسال الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق أربعة جيوش في السنة الثانية من خلافته.

الجيش الأول: إلى فلسطين [معركة داثن].

الجيش الثاني: إلى مصر، [ولكنه لم يذهب إلى مصر بل توجه إلى فلسطين]، وهذا ينسجم مع وجهة النظر التي تقول إن عمرو بن العاص تولى الجيش المعين لفتح مصر في عهد الخليفة أبي بكر، وأنه توجه إلى جنوب فلسطين ريثما ينضج أمر مصر.

الجيش الثالث: إلى بلاد فارس [وهو جيش خالد بن الوليد].

الجيش الرابع: إلى العرب المسيحيين والمقصود ولاية العربية التي عاصمتها بصرى التي فتحت في عهد عمر بن الخطاب سنة 13 هجرية.

- معركة أجنادين بقيادة شقيق هرقل ثاودريقي وقعت في بداية عهد الخليفة عمر أي 13 هجرية.

- في السنة الرابعة للخليفة عمر بن الخطاب اجتاحت جيوش المسلمين سورية الداخلية بما فيها دمشق وحمص، وثمة روايات سريانية تتحدث عن حدوث فتح لدمشق وحمص قبل معركة اليرموك.

- في السنة الخامسة لعمر وقعت معركة اليرموك الفاصلة التي انهارت بعدها كل دفاعات البيزنطيين.



- في هذه السنة نفسها عاد المسلمون إلى دمشق وحمص وغيرهما من المدن وفتحوهما من جديد صلحاً.

- وفي هذه السنة أيضاً توجه خالد بن الوليد إلى حلب وأنطاكية وفتحهما، وللمرة الأولى يرد في الرواية السريانية حديث عن مآسي للسريان.

- في هذه السنة انطلق جيش سعد بن أبي وقاص إلى الكوفة وفتحها.

- وفي السنة نفسها جمع الفرس جمعاً ثانياً في قسطفون (المدائن) وكانت الهزيمة من نصيبهم. وحدث تجمع ثالث جمعه يزجرد بعد فترة وجيزة في الكوفة أيضاً وكانت الهزيمة أيضاً من نصيبه. ثم تجمع رابع في بلد مادي (نهاوند) وكانت المعركة الفاصلة التي قضت على مملكة الساسانيين.

- فتح مصر بعد هذه الأحداث مباشرة.

- في عام 637 م دخل الخليفة عمر إلى القدس وفتحها.

- في عام 640 م فتحت بلاد الجزيرة (ما بين النهرين) على يد عياض ابن غنم.

- في السنة نفسها فتح معاوية قيصرية فلسطين والجليل ووصل إلى قيليقيا.

- في عام 647 م فتح المسلمون إفريقيا.

- في عام 649 م فتح معاوية قبرص، ودخل عاصمتها القسطنطينية.

- في سنة 650 م قتل يزدجرد وفتح سعيد ابن الخليفة عثمان بلاد ما وراء النهر وجاء إلى مرو وتم إرسال تاج كسرى إلى المدينة.

- في عام 654 م فتح أبو الأعور السلمي جزر قو وكريت و رودس.

- في عام 655 م حاصر معاوية القسطنطينية، وكاد أن يفتحها.



إن تسلسل الأحداث هذا قابل للنقد من حيث التواريخ المثبتة، ولكنه من خلال مقارنته ببعض الوقائع في أخبار الفتوح يمكن أن يشكل قرائن تدعم بعض الروايات الإسلامية الملتبسة التاريخ.

أبو الأعور السلمي

تعد شخصية (أبو العور) التي يرد ذكرها في تاريخ ميخائيل الكبير وتاريخ الرهاوي المجهول بهذه الصيغة، الشخصية المحورية في الفتوحات الإسلامية البحرية في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ، والتي قادها بشكل مباشر حاكم الشام معاوية بن أبي سفيان.

والروايات السريانية المتعلقة بالفتوحات التي تمت على يد معاوية مكتوبة للمرة الأولى من وجهة نظر المعسكر الإسلامي، والمرجح أن مصادرها الضباط والجنود السريان الذين ضمهم معاوية إلى قواته، والتي وصلت، بحسب تاريخ ميخائيل الكبير، إلى تولية قائد سرياني قيادة أحد الجيوش ويدعى حبيب، يصفه المؤرخ التلمحري أو ميخائيل الكبير بـ (حبيب السرياني الشرير). بالإضافة إلى ذلك تذكر الرواية السريانية أن أبا العور فرض الجزية على جنوده المسيحيين عام 669م، وهو ما يشير إلى وجود سريان بينهم.

إن الفتوحات التي تنسبها الرواية السريانية لأبي العور هي التالية:

- قاد عملية الفتح الثانية لجزيرة قبرص.

- قاد عملية فتح جزيرة قو وجزيرة كريت وجزيرة رودس.

- قاد الحملة على القسطنطينية عام 655م وانتصر على قوات الروم المتجمعين في قيليقيا وكاد أن يأسر الإمبراطور قسطس وشقيقه، وقد بلغ عدد قتلى الروم فيها عشرين ألفاً طفت جثثهم على سطح الماء.



إن أبا العور هذا المذكور في الرواية السريانية ما هـو إلا أبـا الأعـور السلمي، الذي يعد حسب الروايات الإسلامية من رؤوس الفتنـة الـتي شقت الدولة الإسلامية في عهد الخليفة الرابـع علـي بـن أبي طالـب، حتى أن المـصادر الـشيعية وبعـض المـصادر الـسنية تتحـدث عـن أن الإمام علي كرم الله وجهه كان يلعنه في الصلاة.

لدينا الآن مثـل حـي علـى تـدخل الميـول الـسياسية والمذهبيـة في الرواية التاريخية الإسلامية، فـالموقف الـسياسي والمـذهبي مـن هـذا القائد الذي تنسب له المصادر السريانية الانتصارات الهائلـة في فتـوح البحـر، يكـاد أن يكـون مجهـولاً لـدى مـؤرخي الفتـوح المـسلمين، باستثناء الرواية التي ينقلها الحافظ الذهبي، والتي تتحدث عـن أن أبـا الأعور هذا كان له الفتح الثاني لجزيرة قبرص.

يقول الذهبي في تاريخ الإسلام: (أبو الأعور الـسلمي اسمـه عمـرو بن سفيان وقيل : عمرو بن عبد الله بـن سـفيان ويقـال غـير ذلـك. لـه صحبة وكان يوم اليرموك أميرا على كردوس وكان أمـير الميـسرة يـوم صفين مع معاوية. روى عنه: قيس بـن أبي حـازم وأبـو عبـد الـرحمن السلمي وعمرو البكالي. وقال الوليد بن مسلم : ثنا عثمان بـن حـصن عن يزيد عن عبيدة قال : غزا أبو الأعور السلمي قبرص ثانياً سنة سـبع وعشرين. وعـن سـنان بـن مالـك أنـه قـال لأبي الأعـور : إن الأشـتر يدعوك إلى مبارزته فسكت طويلا ثم قال : إن الأشتر خفته وسوء رأيـه حملاه على إجلاء عمال عثمان من العراق ثم سـار إلى عثمـان فأعـان على قتله، لا حاجة لي بمبارزته. توفي أبو الأعـور في خلافـة معاويـة لأني وجدت جرير بن عثمان روى عـن عبـد الـرحمن بـن أبي عـوف الجرشي قال : لما بايع الحسن معاوية قال له عمرو بـن العـاص وأبـو الأعور عمرو بن سفيان السلمي: لو أمرت الحسن فتكلم علـى النـاس



على المنبر عيى عن المنطق فيزهد فيه الناس فقال معاوية : لا تفعلوا فوالله لقد رأيت رسول الله ﷺ يمص لسانه وشفته فأبوا على معاوية . وذكر الحديث تقدم)[1].

أما ابن الأثير الجزري فيقول في ترجمته: (أبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي. ذكرناه في "عمرو بن سفيان". يعد في الصحابة. قال أبو حاتم الرازي. لا تصح له صحبة ولا رواية. قيل: شهد حنيناً كافراً ثم أسلم بعد هو ومالك بن عوف النصري، وحدث بقصة هزيمة هوازن بحنين، ثم صار من أصحاب معاوية وخاصته، وشهد معه صفين، وكان أشد من عنده على علي بن أبي طالب رضي الله عنه- وكان علي يدعوا عليه في القنوت. أخرجه أبو عمر)[2].

من المثلين اللذين سقناهما حول ترجمة أبي الأعور السلمي، يتضح أن المصادر الإسلامية على العموم سنية وشيعية، كانت تنظر إلى أبي الأعور بوصفه واحداً من رؤوس الفتنة، ولذلك تجنبت هذه المصادر نسبة أي انتصار أو حدث إيجابي له، ومن هنا نجد أن الروايات المتعلقة بفتوح البحر تُنسب إلى عبد الله بن قيس الفزاري، أو لجنادة بن أبي أمية الأزدي، أو غيرهم من القادة الذين كانوا على الأرجح تحت قيادة أبي الأعور.

مرة أخرى تساعدنا الرواية السريانية على إعادة تركيب الأحداث المتعلقة بفتوح جزر البحر المتوسط من خلال شخصية أبي الأعور التي طمست في المصادر الإسلامية لأسباب شتى، في حين لم تكن المصادر السريانية مضطرة لمثل هذا الطمس.

---

(1) تاريخ الإسلام للذهبي ص 515 من 4878.

(2) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري، كتاب الكنى من 149 من 191.



استخلاص

رأينا فيما سبق كيف أن الرواية السريانية للفتوح الإسلامية حملت الكثير من الوقائع التاريخية غير المذكورة في المصادر العربية الإسلامية أو البيزنطية، وهي بذلك سدت بعض الثغرات المتعلقة بقصة هذه الفتوح، التي دونتها كتب الفتوح الإسلامية بعد أكثر من قرنين من الزمان، وهو ما أفقدها بعض التفاصيل، وخصوصاً الاضطراب الذي نلمسه في التواريخ، وتدخل الميول السياسية والمذهبية في بعض الوقائع وخصوصاً ما يتعلق بشخصية محورية في الفتوحات البحرية وهي شخصية أبي الأعور السلمي.

وقد أكدت الرواية السريانية على أن قرار فتح بيت المقدس والشام كان قراراً نبوياً، وأن الفتوح الإسلامية المبكرة امتازت برحمة الفاتحين وعدم ارتكابهم أي تجاوزات مما كان يرتكب في تلك العهود، باستثناء رواية واحدة عن فتح أنطاكية على يد خالد بن الوليد جرى الحديث فيها عن عمليات سبي وقتل.

وأشارت الرواية السريانية إلى فتح دمشق مرتين وهو ما ذهبت إليه بعض المصادر الإسلامية. وأكدت ما سبق أن ورد في أخبار الفتوح حول معركة اليرموك الفاصلة والتي سقطت بعدها جميع مدن الشام.

وأكدت الرواية السريانية على قصة فتح بيت المقدس على يد الخليفة العادل عمر بن الخطاب وزادت أنه أقام في القدس فترة من الزمن وفي عهده ابتدأ الشروع في بناء المسجد الأقصى.



وقد أماطت الرواية السريانية اللثام عن الغموض والأسطرة اللذين أحاطا بشخصية الإمبراطور البيزنطي هرقل، بحيث قدمت هذه الرواية عرضاً متكاملاً لسيرة هذا الملك العسكرية امتازت بقوة الحجة، وهو ما فسر سلسلة الهزائم والنكبات التي منيت بها مملكته طوال فترة حكمه الطويلة. وهذه الرواية هي الأقوى من بين الروايات التي تناولت هذا الإمبراطور الخاسر.

كما رأينا أن وجهة النظر السريانية من وقائع الفتوح انتقلت في عهد معاوية بن أبي سفيان إلى داخل المعسكر الإسلامي، بعد أن كانت في الفتوح المبكرة من داخل المعسكر البيزنطي، وهو ما دل دلالة معبرة على إشراك السريان في جيوش الفتح الإسلامي خلال عهد معاوية، بعد أن كانوا ضمن جيوش البيزنطيين في الفتوح المبكرة. وهذه الملاحظة بالذات أعطت للرواية السريانية مصداقية كبيرة من شأنها أن تكمل بعض الروايات الإسلامية وتدعم بعضها وتصوب البعض الآخر.



مصادر

- بيزنطة والفتوح الإسلامية المبكرة، لولتر كيغي، تعريب نقولا زيادة، دار قدمس، دمشق 2003م.

- تاريخ الرهاوي المجهول، الجزء الثاني، تعريب ألبير أبونا، بغداد.

- تاريخ الرهاوي المجهول، بالسريانية، طبعة دير مار أفرام السرياني في هولندا 2004.

- تاريخ الزمان لابن العبري، تعريب اسحق أرملة، دار المشرق، بيروت 1986م.

- تاريخ الزوقنيني المنحول لديونيسيوس التلمحري، سهيل قاشا، منشورات المكتبة البولسية، بيروت 2006م.

- تاريخ الكنيسة، يوحنا الأسيوي، تعريب صلاح عبد العزيز محجوب إدريس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2000م.

- تاريخ ميخائيل الكبير، الجزء الثاني، تعريب مار غريغوريوس صليبا شمعون، دار ماردين، حلب 1996.

- بحوث تاريخية لاهوتية روحية، للبطريرك أغناطيوس زكا الأول عيواص، 3 أجزاء، دير مار يعقوب البرادعي، لبنان 1998- 1999- 2000م.




مكتبة
الفكر الجديد

كشاف الأماكن والأعلام








مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

الفهرس







شكلت الفتوحات الإسلامية المبكرة لبلاد الشام والعراق والجزيرة الفراتية ومصر الحدث العالمي الأبرز خلال القرن السابع الميلادي والأول الهجري، وشغلت أخبار الفتوح المؤرخين والإخباريين العرب والمسلمين، وشكلت مادة رئيسة للعديد من المؤلفات، التي وضعت حول هذا الموضوع عنواناً لها، كـ "فتوح البلدان" للبلاذري، و"فتوح الشام" للواقدي، و"تاريخ فتوح الشام" للأزدي، و"فتوح مصر" لأبي القاسم القرشي.

غير أن هذه المؤلفات في معظمها عانت من مشكلة أساسية، وهي اعتمادها على روايات شفهية متعددة، تم تدوينها بعد أكثر من قرنين من وقوعها، وهو ما خلق بعض الاضطراب في تسلسل بعض الأحداث.

يتناول هذا الكتاب بالتحليل العميق المصادر السريانية التي تناولت أخبار الفتوح الإسلامية، كعنصر أساس في هذه الدراسات، لابد منه لكي تكتمل الصورة وتحاط بمختلف أبعادها وزواياها، خصوصاً وأن السريان كانوا شهوداً عياناً على هذه الأحداث، ووثقوها في كتب التاريخ التي كانوا يضعونها ويتوارثونها كابراً عن كابر، وقد غابت المصادر التاريخية السريانية طويلاً عن قراء العربية، واحتكرها العارفون باللغة أو المستشرقون الذين بدأوا بترجمة التراث التاريخي السرياني بشكل مكثف في القرن التاسع عشر.


ISBN 978-9933-429-85-0
9 789933 429850